فصح

فرح . صداقة . حرية

مطرانية الروم الأرثوذكس
الكويت

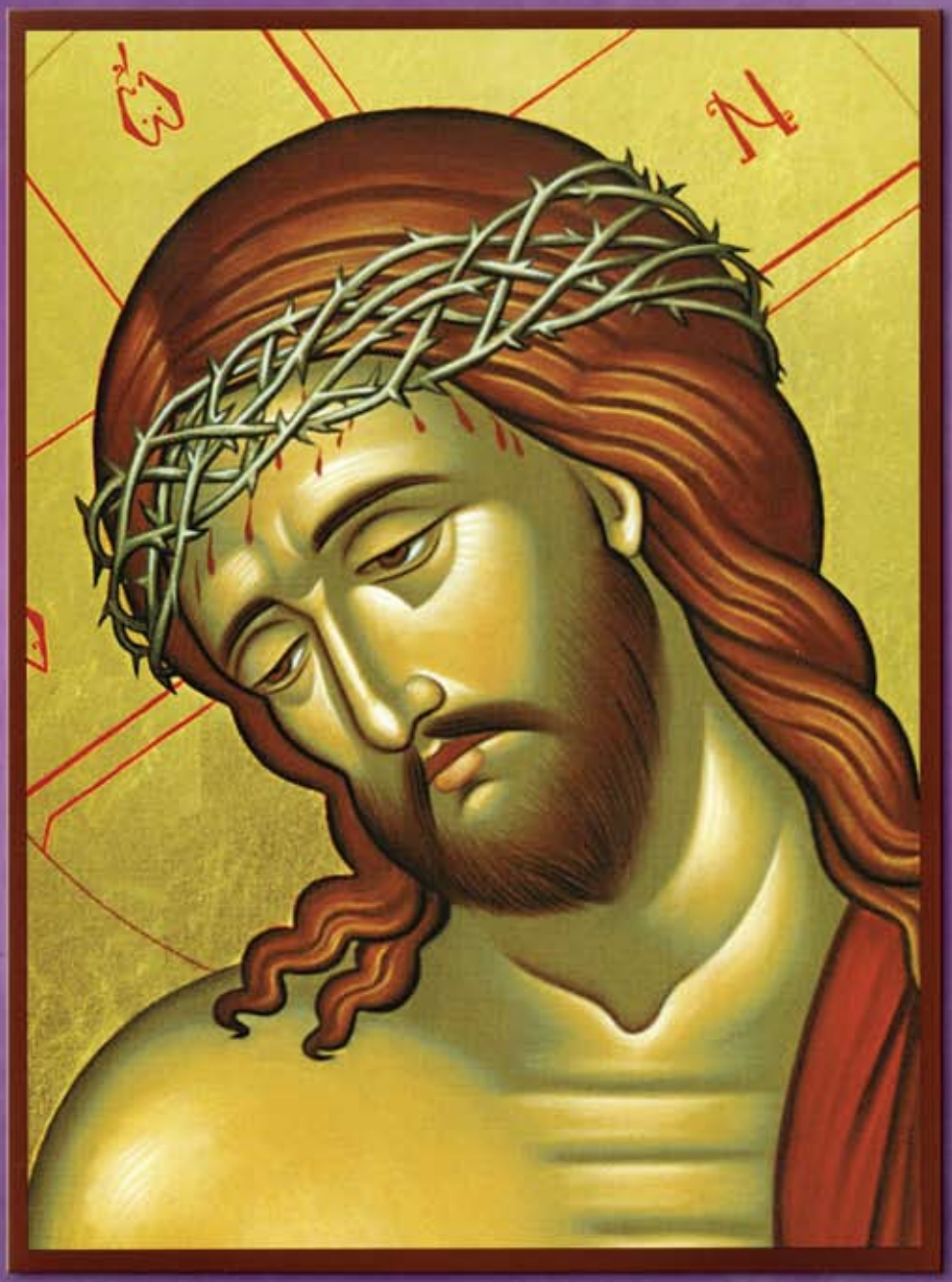

ها هوذا الختنُ يأتي في نصفِ الليل، فطوبى للعبدِ الّذي يجدهُ مُستيقظاً، أمّا الّذي يجدهُ مُتغافِلاً فهو غيرُ مُستحق، فانظري يانفسي ألاّ تستَغرقي في النوم، ويُغلق عليكِ خارجَ الملكوتِ، وتُسلّمي إلى الموت، بلْ كوني منتبهةً صارخة: قدّوسٌ قدّوسٌ قدّوسٌ أنتَ يا الله، منْ أجلِ والدةِ الإلهِ ارحمنا.

فصح

مجلة فصح – عدد ٥، نيسان (أبريل) ٢٠١٠

مطرانية بغداد والكويت
وسائر الخليج العربي للروم الأرثوذكس

أسرة المجلة

رئيسة التحرير
كاتي عوض

تصميم وإخراج
فادي عدره

التحرير
الأرشمندريت أفرام الطعمي
الشماس يوسف عرب
لؤي شاهين
إليان حبوب

نشكر كل من ساهم في إغناء هذه المجلة

الفهرس

كلمة العدد	المطران قسطنطين	٠١
أيقونة المديح	نقلاً عن مواقع أرثوذكسيّة	٠٢
القدّيس غريغوريوس بالاماس	من سنكسار الكنيسة	٠٥
رحلة في رسائل بولس الرّسول	ماريّا قبارة	١٠
درب الآلام ... بستان جشيمان	عبدالله سلّيط	١٥
الألوان الكهنوتيّة الليتورجيّة	ترجمة من موقع www.asna.ca	١٦
صلاة مديح والدة الإله	الأرشمندريت يوسف يعقوب	١٧
كيف يواجه الوالدون أزمة كِبر الأولاد؟	كوستي بندلي	٢١
رسالة إلى والديّ	فادي عدره	٢٤
سرّ المعموديّة	الأرشمندريت يوسف يعقوب	٢٥
النور في الأرثوذكسيّة	الأب بولس طرزي	٣٠
الأخبار		٣٧

الأبناء الأحبّاء

البركة والمصافحة الأبويّة بالرّبّ الفادي يسوع المسيح النّاهضِ من بين الأموات.

نشكر الله على نعمه الغزيرة الّتي يغدقها علينا دائماً والمتجلّية بأن سمح لنا مرّة أخرى أن نعيّد سويّاً عيد الفصح المجيد، عيد قيامة ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح من بين الأموات.

إنّ هذه الأيّام الفصحيّة الخلاصيّة الّتي نتذكّر فيها آلام الرّبّ ودفنه وقيامته ما كانت إلاّ لتدمِجَنا في حياة المسيح الرّبّ فنعيش معه لحظة بعد لحظة الصّليب المجيد، فهو خروفُنا المذبوحُ قبل الدّهور.أخلى نفسه ووضعها محتملاً كلّ شيء لأجل خلاصنا حتّى الموتَ على الصّليب وقد دعانا إلى حمل صليبنا كلّ يوم واقتفاء أثره.

فلتكنْ ذكرى الصّلب لنا إرساخاً لأقدامنا في حمل الصّليب على مناكبنا، والوقوف معه على الجلجلة مصلوبين للعالم، والعالم مصلوبٌ لنا حتّى نبلغَ به انتفاضة قيامة مجدٍ أبديٍّ، ماحِقينَ قوى الشّرّ والجحيم.

يا لها من حقائق تنقل الإنسانَ من عالم المادّة والفساد، إلى عالم الفضيلة في رفعة الرّوح وبهاء التّحلّي بالنّعمة الإلهيّة المخلّصة. فالقلم، وكلّ قلم، عاجز عن وصف أمجاد العيد، واللّسان، كلّ لسان، عاجز عن منحه حقّه من الثّناء والمديح الواجب.

والآن ليس لنا سوى أن نسجد خاشعين ومتهلّلين منذهلين لمن فتح لنا أبواب الفردوس ونقلنا من أرض عبوديّةِ الخطيئة إلى حريّة أبناءِ النّور والحقّ. فلنبارك ولنمجّد من هو علّة هذه الخيرات أي إله آبائنا، تبارك وتمجّد في كلّ حين.

لقد اشترانا بدمه المسفوك عنّا، فتحوّلنا بدمه من مائتين فاسدين إلى خالدين في نور الرّوح القدس. فهل تكون لنا كأسُ الخلاص غرقاً في لجّة دم المحبّة المضحّية لنبذل نحن أيضاً أنفسَنا عن الرّعيّة كما بذل هو نفسه عن الجميع.

إنّ البشريّة تنسى دوماً أنّ يسوع ذاته هو هو الطّريق والحقّ والحياة، به نحيا ونتحرّك ونوجد، هو مركز ثقلنا الأوحد المتحكّم في حركاتنا وسكناتنا. يقوم في وسط كلّ منّا حياة جديدة مندفعة إلى العلاء، متشوّقة إلى الأصل، الآب السّماويّ.

نسأل يسوع النّاهض من بين الأموات في اليوم الثّالث أن تتحقّق قيامته المجيدة فينا وأن ينير دروبنا بنوره الإلهيّ إلى معرفة الحقّ والطّريق الصّحيح وأن يديم نعمته الإلهيّة معنا وفيما بيننا.

المسيح قام، حقّاً قام

المطران قسطنطين

أيقونة المديح

نقلاً عن مواقع أرثوذكسيّة

يعود زمن هذه الأيقونة المقدّسة إلى القرن السّابع الميلاديّ. ففي سنة ٦٢٦ كانت الحرب دائرةً بين الرّوم والفرس. فاستطاع الفرس أن يتقدّموا بالحرب حتّى مدينة خلقدونيّة. فطمع الآفار –وهم قوم من البرابرة– بالاشتراك في الحرب ضدّ الرّوم ظانّين أنّهم بهذا سيحصلون على غنائم جمّة. فاندفعوا إلى أسوار المدينة المتملّكة القسطنطينيّة. وكان الإمبراطور هرقل عندئذ متغيّباً عن العاصمة بسبب انشغاله بالحرب. ولكنّه كان قد أقام البطريرك المسكونيّ سرجيوس وصيّاً على ابنه ونائبه في الحكم. فهبّ البطريرك بفصاحته وشجاعته يثير الهمم ويشدّد العزائم. ويقوّي شجاعة المحاصرين بالتوكّل على الله ووالدته الفائقة القداسة بقوله لهم: «تشجّعوا يا أولادي إنّنا ملقون رجاءنا كلّه بالنّجاة على الله وحده ورافعون إليه من كلّ قلوبنا ونفوسنا أيدينا وأبصارنا. فهو الّذي يبدّد المصائبَ والنّكباتِ النّازلةَ بنا ويدمّر مباغي أعدائِنا.»

وكان البطريرك مع الشّعب يطوف شوارع المدينة وحول أسوار المدينة حاملاً معه أيقونة المخلّص وأيقونة والدة الإله المقدّسة هاتفاً وباكياً: «قمْ يا الله وليتبدّد أعداؤك وليبيدوا كالدّخان ويذوبوا كالشّمع من أمام وجهك» (مز ٦٧:١). فأصبح على حسب تعبير أحد المعاصرين «خوذة العاصمة ودرعها وسيفها». ويقول معاصر آخر: إنّ البطريرك ما فتئ يواجه قوّات الظّلمة والفساد بأيقونتي المخلّص والسّيّدة العذراء حتّى زرع في قلوب الأعداء الرّعب والخوف فكانوا كلّما عرض البطريرك من الأسوار أيقونة الشّفيعة حامية العاصمة أعرضوا هم عن النّظر إليها.

أتمّ زعيم الأعداء كلّ ما يلزم لتهيئة الهجوم فملأ خليج القرن الذّهبي بالسّفن وحاصر الأسوار بالعساكر المشاة، وأمر بالهجوم على المدينة. فردّ الجنود المستعينون بالمخلّص ووالدته بشجاعة هجمات العدو الغادر. فامتلأ ميدانُ القتال بجثث البرابرة، وفي الوقت عينِه عصفت ريحٌ عاتية ممّا جعل البحر هائجاً مائجاً، الأمر الّذي أدّى إلى إغراق معظم سفن الأعداء وتحطمها.

فتح شعب القسطنطينيّة أبواب المدينة وطاردوا البرابرة إلى معسكرهم، عند ذلك أحرق الأعداء جميع الآلات الّتي كانوا قد جاؤوا بها لتهديم أسوار المدينة. وتقهقروا عنها مخذولين خاسئين ومعهم الجيش الفارسيّ الّذي شاركهم باقتحام ومني بالخسائر الفادحة.

أمّا الشّعب المتعزّي بمساعدة أمّ الإله السّريعة الاستجابة فرنّم أمام أيقونتها المقدّسة: «إنّي أنا مدينتك يا والدة الإله، أكتب لك رايات الغلبة يا جنديّة محامية، وأقدّم لك الشّكر كمنقذة من الشّدائد، لكن بما أنّ لك العزّة الّتي لا تحارب أعتقيني

من صنوف الشّدائد حتّى أصرخ إليك، افرحي يا عروساً لا عروس لها». وأحيا اللّيلَ كلّه واقفاً على الأقدام مُصلّياً ومرنّماً للشّفيعة السّماويّة نشائدَ المديح والشّكر. فتذكاراً لهذا الانتصار والانتصارات الأخرى الممنوحة بمساعدة والدة الإله عَيّنت الكنيسة المقدّسة عيدَ مديح والدة الإله الفائقة القداسة في يوم السّبت من الأسبوع الخامس في الصّوم الكبير من كلّ سنة. فيرنّم فيه خدمة مديح العذراء الفائقة النّقاء المسمّى (أكاثيسطون) أي (بغير جلوس). وهو لا يجوز الجلوس فيه لأنّ الشّعب ترنّم أوّلاً بهذه النّشائد الشّريفة واقفاً اللّيل كلّه.

إن عيد المديح هذا كان يحتفل به أوّلاً في كنيسة البلاط الإمبراطوريّ حيث حفظت أيقونة والدة الإله القائدة العجائبيّة مع ثوبها وزنارها الشّريفين وحيث أحيا الشّعب الصّلاة ساهراً ليلةَ هجوم الآفاريّين والفرس على مدينة القسطنطينيّة. وفي القرن التّاسع أُثبِتَ هذا العيدُ في قوانين ديري سابا المتقدّس والسّتوذيتي، ثمّ في كتاب التّريوديّ الّذي يضمّ صلوات الصّوم الأربعينيّ المقدّس، وهكذا عمّ الكنيسة الشّرقية جمعاء.

إنّ أيقونة المديح هذه الّتي تُلي أمامها الأكاثيسطون في القسطنطينيّة توجد اليوم في جبل آثوس في دير القدّيس ديونيسيوس. والكتابة المنقوشة في اللّوح الفضّيّ الّذي على ظاهرها تنطق بأنّ الأمبراطور إلكسيوس كومنينوس هو الّذي عهد بها إلى وكيل الدّير. وقد اشتهرت بجريان الميرون الذّكيّ الرّائحة منها. ولقد تعرّضت هذه الأيقونة للسّرقة مرّتين، المرّة الأولى كانت سنة ١٥٩٢ والمرّة الثّانية كانت سنة ١٧٦٧ وفي كلتا المرّتين اضطرّ سارقوها إلى أن يعيدوها إلى مكانها.

ففي سنة ١٥٩٢هجمت مجموعة من القراصنة على دير القدّيس ديونيسيوس وسرقوا هذه الأيقونة المباركة ووضعوها في صندوق بعد أن غطّوها بأغطية كثيرة. وأبحروا بالسّفينة مسرورين بما فعلوا. ما إنِ ابتعدت السّفينة عنِ الشّاطئ حتّى تتالت ظهورات أمّ الإله لزعيم القراصنة مرّات عديدة قائلة له: «لماذا وضعتني في السّجن أيّها الرّجل الشّرير»؟ أرجعني إلى مسكني الّذي أقيم فيه بهدوء وسلام، ولـمّا لم يبالِ الزّعيم بكلامها، قامت عاصفة هوجاء مفاجئة وتهدّدت السّفينة بالهلاك. فعاد الزّعيم إلى نفسه وتذكّر ظهور العذراء له فأسرع إلى الصّندوق الّذي وُضعت فيه الأيقونة فألفاه محطماً إلى قطع صغيرة والأيقونة مبلّلة بالميرون الطّيّب العرف مع الأغطية الّتي عليها. وما إنْ أخذ الأيقونة على يديه المرتجفتين حتّى سكنَتِ الرّيح وهدأتِ العاصفة. وللحال عاد اللّصوص أدراجَهم إلى الشّاطئ وأرجعوا الأيقونة إلى الدّير المقدّس. وتاب عدد كبير منهم وعادوا إلى اللّه تاركين لصوصيّتهم الأثيمة. مسبّحين اللّه وشاكرين أمّه العذراء.

تتألّف أيقونة المديح من ٢٤ أيقونة على عدد أبيات «المديح الّذي لا يُجلس فيه». تستوحي الأيقونات النّصّ اللّيتورجيّ وبالأخصّ

مطلع كلّ بيت، وتدور كلّها حول ميلاد المسيح، مُستعرضة أحداث التّجسد الإلهيّ ابتداءً من البشارة.

إليكم عنوان كلّ أيقونة، ثمّ مطلع البيت من المديح الّذي تتعلّق به. من اليسار إلى اليمين، ومن فوق إلى أسفل:

١. الملاك جبرائيل يأتي إلى مريم، «إنّ الملاك المتقدّم...».

٢. استغربت مريم كلام الملاك، «قالت لجبرائيل بجرأة: كيف...؟».

٣. طلبت مريم أن تعلم... «إنّ البتول التمست أن تعلم ما لا يُعلم..».

٤. الرّوح القدس يحلّ عليكِ «قوّة العلي ظلّلت العادمة خبرة زواج...».

٥. زيارة مريم لأليصابات «لمّا كان للبتول بطنٌ قابِل للإله بادرت نحو أليصابات...».

٦. شكّ يوسف، «إنّ يوسف العفيف...».

٧. بشارة الرُّعاة بميلاد المسيح، «سمع الرُّعاة الملائكة...».

٨. المجوس يتبعون الكوكب، «إنّ المجوس لمّا صاروا كارزين...».

٩. سجود المجوس، «لمّا رأى فتيان الكلدانيّين...».

١٠. عودة المجوس إلى بلادهم، «إنّ المجوس لمّا صاروا كارزين...».

١١. الهروب إلى مصر، «لمّا أطلعت نور الحقّ في مصر...».

١٢. دخول المسيح إلى الهيكل، «لمّا كان سمعان مزمعاً...».

١٣. ليست من ضمن أيقونات المديح.. ولشرحها انظر آخر الشّرح.

١٤. السّجود للمسيح، «إذ قد رأينا ولادة غريبة...»..

١٥. ميلاد المسيح، «إنّ الكلمة غير المحصور...».

١٦. الملائكة ينشدون: المجد للّه في العُلى...، «إنّ الطّبيعة الملائكيّة...».

١٧. تعجُّب الفلاسفة والعلماء أما سر الميلاد، «إنّنا نرى الفصحاء...».

١٨. خلاص العالم، أيقونة المسيح الّتي تُسمّى «المستريح – anapavson»، «إنّ مزيّن الكلّ لمّا شاء أن يُخلّص العالم...».

١٩. العذراء حامية العذارى والرّهبان والرّاهبات، «إنّك يا عذراء، ياوالدة الإله سور للعذارى...».

٢٠. الكلّ يرتّلون أمام أيقونة المسيح، «أيّها الملك القدّوس إنّ التّسبيح كلّه يعجز مقصّراً...».

٢١. العذراء تحمل النّور، وغير المؤمنين بقوا في ظلمة الجهل، «إنّنا نرى البتول القدّيسة مصباحاً...».

٢٢. يسوع يمزّق الصّكّ، «لمّا أراد موفي ديون جميع البشر...».

٢٣. الكلّ يمدحون والدة الإله، «ياوالدة الإله.. نمدحك مرتّلين..».

٢٤. تكريم أيقونة والدة الإله، «ياذات كلّ تسبيح...»

٢٥. في وسط الأيقونة، داود النّبي يحمل لفّافة مفتوحة كُتب عليها من المزمور ٤٥: ١٠-١١ «اسمعي يا بنت وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك...» هو كاتب المزامير،أوّل من نظم التّسابيح، ويمثّل هنا كلّ من كتب التّراتيل.

القدّيس غريغوريوس بالاماس

من سنكسار الكنيسة

وُلد القدّيس «غريغوريوس بالاماس» في مدينة القسطنطينيّة في العام ١٢٩٦ للميلاد. كان من عائلة من النّبلاء. أبوه وأمّه مهاجران من بلاد الأناضول، تركاها إثر غزوة الأتراك لها. كان أبوه عضواً في مجلس الشّيوخ مقرّباً من الإمبراطور البيزنطيّ أندرونيكوس الثّاني باليولوغوس. يُروى عن أبيه أنّه كان يتعاطى الصّلاة القلبيّة ويغيب عمّا حوله حتّى في محضر الإمبراطور. وقد كان يحدث أن يطرح عليه أندرونيكوس سؤالاً فلا يجيبه لأنّه كان غارقاً في صلاته. ويبدو أنه صار راهباً واتّخذ اسم قسطنديوس عندما أحسّ بدنو أجله. أمّا أمّه فكانت هي الأخرى تقيّة، حادّة الذّكاء، تتمتّع بمواهب جمّة. وقد كان لها على ابنها أطيب الأثر. كما اقتبلت هي أيضاً الحياة الرّهبانيّة. كان لغريغوريوس أربعة أخوة، أختان وأخوان. وإثر وفاة أبيه تعهّد العائلة الإمبراطور أندرونيكوس. وهكذا تيّسر لغريغوريوس أن يحصّل قدراً وافراً من العلم الدّنيويّ. كما أمضى سنواته حتّى العشرين أو الثّانية والعشرين في القصر الملكيّ. يُروى عنه أنّه كان صعباً عليه – أوّل أمره – أن يحفظ غيباً فكان يركع ثلاث مرّات ويصلّي لوالدة الإله صلاة حارّة. وبمعونتها تَوصّل إلى الحفظ عن ظهر قلب بسهولة. درس البيان والخطابة والطّبيعيّات والمنطق. وقد أبلى في الفكر الفلسفيّ بلاء حسناً، لا سيّما في المنطق الأرسطوي حتّى كان يبدو لمعلميه وكأنهم يسمعون فيه أرسطو بعينه.

ولم تغرّ غريغوريوس نجاحاته ولا كانت له في دنيا الوظائف العامّة طموحات. لذا حوّل طَرْفه ناحيةً أخرى تحرّك صوبها قلبه بكلّيّته: الرّهبنة. اعتاد قبل ذلك أن يلتقي رهباناً ينحدرون من الجبل المقدّس (آثوس). وكان هؤلاء يرشدونه إلى الابتعاد عن العالم ويشجّعونه على الذّهاب إلى الجبل المقدّس. كما كانوا يوصونه بالتروّض على أتعاب الفضيلة قبل ترك العالم. وهكذا بدأ بالسّلوك في الفقر إلى حدّ أن بدأ مَنْ حوله يظنّون أنّه فقد عقله. وقد كان له في شخص ثيوليبتوس، أسقف فيلادلفيا العتيد، خيرُ أبٍ روحيّ ومعلّمٍ حثّه ونشّأه على يقظة القلب والصّلاة النّقيّة.

أخيراً عزم غريغوريوس على ترك العالم والانصراف إلى الحياة الرّهبانيّة الملائكيّة. ولمّا كان بكرَ أخوته وصاحبَ الكلمة الأولى في العائلة محلّ أبيه، فقد رأى أنّ الحلّ الأوفق يتمثّل في أن يتركَ هو وأمّه وأخواه وأختاه والخدمُ العالمَ ويقتبلوا

الحياة الدّيريّة. وهكذا كان: توزّعَت الأمّ والأختان والخدم على أديرة في القسطنطينيّة وارتحل غريغوريوس وأخواه، مكاريوس، وثيودوثيوس، إلى الجبل المقدّس (آثوس). كان ذلك في العام ١٣١٦ للميلاد.

نزل غريغوريوس وأخواه في مكان قريب من دير فاتوباذي في الجبل المقدّس، ووضعوا أنفسهم في عهدة أب هدوئيّ يدعى نيقوديموس. الهدوئيّةُ طريقةٌ رهبانيّةٌ نسكيّةٌ تتمثّل في حياةٍ نصفِ مشتركةٍ يتحلّق فيها الرّهبان حول شيخ روحانيّ فيسلكون في النّسك والصّلاة ويذهبون في السّبوت والآحاد إلى الدّير الّذي يعتبر أسقيطُهم من توابعه ليشتركوا في الخِدم اللّيتورجيّة وسرّ الشّكر. أمضى غريغوريوس في هذا الموضع ثلاث سنوات قضاها في الصّلاة والصّوم والسّهر. كان ذكرُ والدة الإله لديه دائماً، يستعين بها على نفسه. ويذكر مترجم سيرته أنّه فيما كان يصلّي مرّة ظهر له القديس يوحنّا اللاّهوتيّ، شيخاً وقوراً، وقال له: «لقد أرسلَتْني إليك ملكةُ الكلّ والفائقةُ القداسة لأسألكَ لما تصرخُ إلى الله في كلّ ساعة: أنر يا ربّ ظلمتي! أنر ظلمتي؟؟ فأجاب غريغوريوس: وماذا أطلب أنا الممتلئ أهواء وخطايا، غيرَ الرّحمة والاستنارةِ لأدركَ مشيئةَ الله القدّوسةَ وأعملَ بها؟ فقال له الإنجيليّ: إنّ سيّدة الكلّ تقول لك بواسطتي أنّها جعلتني معها معيناً لك في كلّ شيء. فسأله غريغوريوس: وأين تريد أُمُّ ربّي أن تساعدَني أَفي الحياة الحاضرة أمْ في الآتية؟ فأجاب يوحنّا الإنجيليّ: في الحياة الحاضرة والآتية معاً...».

توفّي أخو غريغوريوس الأصغر، ثيودوسيوس، وهكذا نيقوديموس الشّيخ فانتقل غريغوريوس وأخوه الثّاني، مكاريوس، إلى دير اللاّفرا الكبير الّذي كان أوّلَ دير في الجبل المقدّس (آثوس) والّذي أسّسه القدّيس أثناسيوس الآثوسي في القرن العاشر للميلاد. بقي غريغوريوس في اللاّفرا ثلاث سنوات ساد خلالها، بنعمة الله والجهاد المرير والنّسك الشّديد، لا على أهوائه وحسب بل حتّى على ضرورات الطّبيعة. فلقد حارب النّعاس وتغلّب عليه إلى حدّ أنّه بقي ثلاثة أشهر بلا نوم إلاّ قليلاً من الرّاحة بعد الطّعام حتّى لا يفقد عقلُه صوابَه. بعد ذلك خرج غريغوريوس إلى الصّحراء طالباً المزيد من الخلوة والهدوء، فاستقرّ حيناً في أسقيط يُدعى «غلوسيّا» حيث تتلمذ لناسك شهير في الهدوئيّة اسمه غريغوريوس البيزنطيّ فأخذ عنه الأسرار الفائقة للصّلاة العقليّة ولرؤية الله السّامية. وقد اكتسب خلال إقامته في هذا الأسقيط تواضعاً عميقاً اقترن بمحبّة لا تُوصَف لله والقريب. كما ساعدته الخلوةُ والهدوء على تركيز العقل في القلب والدّعوة باسم الرّبّ يسوع بنخسٍ، فأضحى كلّه صلاة وصارتِ الدّموع العذبة تتدفّق من عينيه كَمنْ عين ماء لا ينضب. لم تطل إقامة غريغوريوس في هذا الأسقيط أكثر من سنتين أو ثلاثٍ غادر بعدها إلى تسالونيكي بسبب غارات القراصنة الأتراك (١٣٢٥م)، وكان بصحبته اثنا عشر راهباً من الأخوة.

في تسالونيكي، اشترك غريغوريوس لبعض الوقت في حلقة روحيّة كان يقودها إيسيدوروس، بطريرك القسطنطينيّة العتيد وأحد تلامذة القدّيس غريغوريوس السّينائيّ. الفكرة من هذه الحلقة كانت أنّ الرّوحانيّة الهدوئيّة ليست للرّهبان وَحْدَهم، بلِ لعامّة المؤمنين أيضاً. وعليه سعى غريغوريوس وإيسيدوروس إلى نشر ممارسة صلاة الرّبّ يسوع بين النّاس من حيث هي الأداةُ لتفعيل نعمة المعموديّة.

سيم غريغوريوس كاهناً وهو في سنّ الثّلاثين (١٣٢٦م). ثمّ انتقل إلى منطقة فاريا الواقعة على الحدود بين مقدونيا وتراقيا، واستقرّ في إحدى مغاورها الجبليّة نظير النّسّاك القدامى. هناك، فيما يبدو، قسى على نفسه أشدّ القسوة، فكان لا يخرج من قلايته خمسة أيام كاملة في الأسبوع إلاّ السّبت والأحد ليشتركَ في خدمة الأسرار الإلهيّة وينفع إخوته بكلام روحيّ. وقد تركت هذه المرحلةُ من حياته بصماتِها على صحّته البدنيّة فأُصيب بمرض في الأمعاء. كان الرّهبان والنّسّاك في منطقة فاريا ينظرون إلى غريغوريوس كمثال لحياة الفضيلة لأنّ حياتَه الملائكيّةَ، على حدّ تعبير مترجمه، «كانت تدهش الجميع وتدخلهم في نشوة»، وكذا كلامه وحكمته الإلهيّة الفائقة. كما «كان يظهر في بعض الأحيان يقِظاً متّجهاً كلُّه إلى الله مغتسلاً بدموعه العجيبة، وأحياناً أخرى كان وجهُهُ يظهر بشكل فائق الطّبيعة بهيّاً لامعاً ممجّداً بنار الرّوح القدس ، خاصّة عندما كان يخرج من القدّاس الإلهيّ أو من هدوء صلاته في القلاية».

لم يُطِل المقام في فاريا أكثر من خمس سنوات إذ اضطّر تحت غارات الصّربيّين إلى العودة إلى الجبل المقدّس (آثوس) حيث نزل في منسك القدّيس سابا التّابع لدير اللاّفرا الكبير والرّابض فوق أكَمَةٍ تعلو على الدّير ويحتاج قاصدُها إلى ساعةٍ سيراً على الأقدام ليصلَ إليها. هناك انصرف غريغوريوس إلى تواصلٍ أعمق بربِّهِ فَبَلَغ معاينةَ الله في نور الرّوح القدس والتّألّه. هنا يَروي مترجمُ سيرته أنّه فيما كان ذهنه مرّة ملتصقاً بالله «أخذه نعاس خفيف فعاين الرّؤيا التّاليةَ: ظهر وهو يمسك بيديه وعاءً مملوءاً حليباً. وقد أخذ الحليبَ فجأة يفيض كَنَبْعٍ وينسكب خارج الوعاء. ومن ثمّ ظهر وكأنّه استحالَ خمرةً ممتازةً زكيّةَ الرّائحة... فجأة ظهر له إنسانٌ نورانيّ بِلباسٍ عسكريّ وقال له: لما لا تعطي يا غريغوريوس للآخرين بعضاً من هذا الشّرابِ العجيب المنسكب بغزارة بل تتركه يذهب هدراً؟ ألا تعلم أنّه هبة من الله ولن ينضبَ أبداً؟ فأجاب غريغوريوس: لا طاقةَ لي على منح مثل هذا الشّرابِ لأحدَ ولا يوجد من يطلبُ مثل هذا النّوع من الشّراب. أجابه الرّجل: وإن لم يكن ثمّة مَنْ يسعون في طلب مثل هذه الخمرة، في الوقت الحاضر، فإنّ عليك أن تعملَ وسعَك ولا تتهاون في تقديمه للآخرين. أمّا الإثمارُ فمتروك لله». هكذا أيقن غريغوريوس أنّه قد آن الأوان لمباشرة عملٍ كتابيٍّ يَفيدُ منه من يحرّك الله قلوبَهم.

كتاباتُ القدّيس غريغوريوس عظيمةُ الأهميّة. لذا، وإكمالاً للفائدة نورد بعض مقالاته. يقول إنّه متى اعتزل الإنسانُ العالمَ واستغرق في النّشوة الكاملةِ للرّوح فإنّ اللهَ يكشف له ذاتَه. إذ ذاك تنشقّ الظّلمة ولا يبقى غيرُ نورِ الله يدعونا إليه مؤطراً بنار معتمة. هذا النّور هو الله نفسُه. فإنّ صلّى المرء بمنتهى البساطة في القلب وكرّر الكلمات «ربّي يسوع المسيح ، ابن الله،ارحمني» أيضاً وأيضاً، فإنّه يؤدّي، بذلك، العملَ الفائق الّذي من أجله خُلق، لأنّه سيجدُ نفسه أخيراً في دائرة الضّوء الّذي أشرق على قمّة ثابور يوم التّجلي الإلهيّ. كان غريغوريوس يرى الكون مشحوناً بطاقة (Energy) التّجسد الإلهيّ وكذا بجمال العذراء مريم. في عينه أنّ الأرضَ موضعٌ إلهيّ يكاد لا يحتمل. فإنّ نورَ التّجلي في الجسد، بحرٌ لا حدّ له يفيض بصورة عجيبة من شمس وحيدة هي جسد المسيح. يقول:» في الاسم القدّوس طاقة إلهيّة تخترق قلب الإنسان وتغيّره متى انبثّت في جسده». وكان يؤمن أنّ ثمة نَفَسَاً إلهيّاً مُعطىً للنّاس يتحرّك في أجسادهم المادّيّة، والجسد يقتني القداسة بهذا النّفس الإلهيّ المنسكب فيه، وأنّ الجسدَ كالنّفس مخلوقٌ على صورة الله وهو ليس شرّاً بحال. وللقدّيس غريغوريوس قول مأثور عن أهمّيّة الجسد «إنّ الإنسان بفضل كرامة الجسد المخلوق على شبه الله هو أسمى من الملائكة». كان يقول أنّه من النّفس تنسكب في الجسد طاقة إلهيّة بصورة متواصلة وأنّ الملائكة وإن كانوا أدنى إلى الله فلا أجسادَ لهم

تنسكب فيها الطّاقة الإلهيّة على هذا النّحو. وعنده أنّ الإنسان يصبح إلهاً متى انكبّ على التّأمل وعاين في موضع القلب نور التّجلي المتوهّج. هذا ومع القدّيس غريغوريوس انتهى الجدل الّذي طالما كان قائماً بين قائلٍ بإمكان إدراك الإنسان لله وقائلٍ بخلاف ذلك. فبما أنّ نعمة الله صار بالإمكان معاينتها في النّور غيرِ المخلوق المتدفّق في «موضع القلب»، وبما أنّ الرّهبان، ولا سيّما القدّيسين، يتمتّعون بهذه النّعمة، في أعمق تأمّلاتهم، لذا يخلص غريغوريوس إلى أنّ الله بات بالفعل قابلاً للمعايَنة لأنّه هو إيّاه هذا النّور. ومع ذلك يبقى الله، إلى الأبد، غير منظور، يبقى في جوهره. بكلمات القدّيس غريغوريوس نفسِه: «ليس لنا أن نشترك في الطّبيعة الإلهيّة ، ومع ذلك، بمعنى من المعاني، لنا أن نشترك، وبيسر، في طبيعة الله، لأنّنا ندخل في شركة معه، فيما يبقى الله تماماً وفي الوقت نفسه بمنأىً عنّا. لذا نؤكّد معاً، وفي وقت واحد، أمرين متناقضين نسرّ بهما ونعتبرهما مقياساً للحقيقة». على هذا خَلُصَ القدّيس غريغوريوس إلى أنّ التّجلي الإلهيّ على قمّة ثابور هو أعظم ما أتاه الرّبّ يسوع المسيح من أعمال. التّجلي الإلهيّ يفوق حتّى سرّ الشّكر. وقد كتب «إنّ نور ثابور هو ملكوت الله». لم يكن نوراً مفاجئاً لأنّه لا بداية له ولا نهاية، لا يُحدّ في زمان ولا مكان ولا يمكن إدراكه بالحواس العاديّة. ومع ذلك صار معروفاً والّذين اشتركوا في طاقة الله عرفوه وتألّهوا به. فالتّلاميذ الّذين وقفوا فوق قمّة ثابور قد رأوا النّور وأضحوا كائناتٍ سماويّةً لأنّهم لمّا حدّقوا فيه تروحنت أجسادهم. هذا النّور المعمّي عاينه القدّيس بولس في دمشق وإيليّا النّبي عندما أخذته عن الأنظار عربة النّار و موسى عندما وقف بالعليقة المحترقة. وكيف يلتمس المرء هذا النّور؟؟؟ قبل كلّ شيء، بالتّوبة والدّعوة باسم يسوع واستدعاء رحمة الاسم القدّوس.

القدّيس غريغوريوس بالاماس هو لاهوتيّ الرّوحانيّة الأرثوذكسيّة الأوّل. إنّ كلّ آباء البريّة والّذين استغرقوا في خبرة صلاة الرّبّ يسوع والتماس النّور الإلهيّ قالوا واختبروا ويختبرون ما سكبه القدّيس غريغوريوس في قالبٍ أجادَ في حبكه. وقد كان التّعبير عن هذا التّراث الحيّ غايةً في الأهمّيّة في القرن الرّابع عشر لأنّ الرّوحانيّة الأرثوذكسيّة تعرّضت، آنئذ، لهجمات من الدّاخل والخارج كان يمكن أن تحوّلَها عن مسارها وتغيّرَ ملامحَها وتلقيها في خضمّ التّيّارات الفكريّة الّتي بدأت تعبث بالغرب، آنذاك، والّتي تمثّلت في بعث الفكر الفلسفيّ الإغريقيّ والوثنيّات القديمة وتمخّضت، فيما بعد، عن التّيّارات العقلانيّة والحركة البروتستانتيّة ، كما خلقت المجتمعات الدّهريّة الّتي أخذت ترتكز على الفلسفة الإنسانيّة والأخلاقيّات دون الإلهيّات وأفرغت ما يعرف بفلسفة «الله مات».

في هذا الإطار كانت المواجهة التّاريخيّة الشّهيرة بين القدّيس غريغوريوس بالاماس و الرّاهب برلعام. كان برلعام من كالابريا، في جنوبي إيطاليا، يونانيّ اللّسان. جاء إلى مدينة القسطنطينيّة خلال العام١٣٣٨ فذاع صيتُه في أوساط المفكّرين فيها كعالِم وفيلسوف مميّز، كما خصّه الإمبراطور ورئيس وزرائه بإكرام وتقدير كبيرين. كان برلعام أرثوذكسيّاً في الظّاهر وقد كتب ضدّ اللاّتين. قال بعدم إمكان معرفة الله في ذاته، واستند في تعاطيه مع مؤلفات الآباء الشّرقيّين إلى تحليلاته الذّهنيّة والفلسفيّة دون الخبرة الصّلاتيّة، لذا اصطدم مع ما كان يعلّم به الهدوئيّون من إمكان معرفة الله ومعاينة النّور غير المخلوق عن طريق صلاة الذّهن في القلب والتّركيز والإيقاع الجسديّين الموافقين لها. فَشَنّ عليهم حملةً شعواء وكفّرهم بحجة الخروج على عقائد أساسيّة مُسلّم بها في الكنيسة. إذ ذاك انبرى القدّيسُ غريغوريوس بالاماس للدّفاع عن تراثٍ طالما عاش الرّهبان في كنفه وخَبِروه حيّاً في ذواتهم على مدى الأجيال. وطبعاً كان لكلّ من الاثنين، غريغوريوس وبرلعام ،مناصرة في كافّة الأوساط:

القصر والجيش والأساقفة والمفكرين والرهبان وحتّى العامّة. وهكذا قامت الدّنيا ولم تقعد ردحاً من الزّمان. في هذه الفترة بالذّات كتب القدّيس غريغوريوس ثُلاثيّتَهُ في الدّفاع عن القدّيسين الهدوئيّين. وقد التأم مجمعان، خلال شهري حزيران وآب من العام ١٣٤١، في أروقة آجيا صوفيا، وأدانا برلعام الّذي تحوّل إلى الغرب وصار أسقفاً في إيطالياً. غير أنّ رحيل برلعام لم يكن كافياً لوضع حدّ للصّراع، فقام أكندينوس بمتابعة الحملة ضدّ القدّيس غريغوريوس والرّهبان وناصرَه في رأيه بطريرك القسطنطينيّة ، يوحنّا كاليكاس، لأسباب سياسيّة. ولكن، أُقيل البطريرك في العام ١٣٤٧م وأخذ مكانه إيسيدوروس الّذي زكّى غريغوريوس وجعله أسقفاً على سالونيك. وكان أهمّ المجامع المنعقدة في هذا الشّأن ذاك الّذي التأم في شهر تموز من العام ١٣٥١م والّذي أدان آخر أعداء بالاماس، الفيلسوف نقفر غريغوراس، وأعلى شأن القدّيس غريغوريوس والكتابات الّتي وضعها من حيث تعبيرُها الصّادق والصّافي عن إيمان الكنيسة الأرثوذكسيّة.

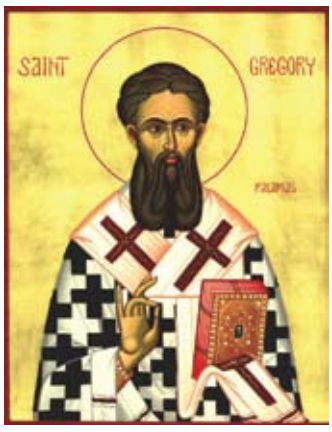

ولعلّ آخر وأهمّ حدث في السّنوات الأخيرة من حياة القدّيس غريغوريوس كان وقوعه في الأسر. فبينما كان ينتقل بطريق البحر من تسالونيكي إلى القسطنطينيّة وقع في أيدي القراصنة الأتراك الّذين استاقوه إلى آسيا الصّغرى حيث بقي أسيراً ما يقرب من سنة (١٣٥٣-١٣٥٤م).

أمران أساسيّان ميّزا هذه الفترة من حياة قدّيسنا، كما يتضّح من الرّسائل والوثائق العائدة إليها، أوّلهما التّسامح الكبير الّذي كان الأتراك يعاملون به المسيحيّين، سواء الأسرى منهم أو سكّان المناطق المحتلّة، والثّاني اهتمام القدّيس غريغوريوس بالدّين الإسلاميّ. وقد تجلّى الأمر الأخيرُ بصورة خاصّة، في الحوار الصّريح الّذي كان للقدّيس غريغوريوس مع الابن الأكبر للأمير التّركي أورخان . ونتيجة هذا الحوار عبّر قديسُنا عن الأمل في أن «يحلّ يوم» على حدّ تعبيره، «يصبح بإمكاننا أن نفهم بعضنا بعضاً...» ويبدو أنّ قديسنا عاش في هدوء خلال القسم الأكبر من هذه الفترة في دير من ديورة نيقيا إلى أن افتداه بالمال بعض الأتقياء الصّرب.

أمّا رقاد القدّيس غريغوريوس فكان في تسالونيكية في الرّابع عشر من شهر تشرين الثّاني من العام ١٣٥٩ للميلاد، بعد أشهر من المرض الشّديد. ويذكر مترجمه أنّه «بعد أن فارقت جسدَه روحُه الطّاهرة، أظهرت نعمة الرّوح القدس البهاء الدّاخليّ الّذي كان في نفسه وذلك بطريقة عجيبة، إذ إنّ نوراً ساطعاً ملأ تلك القلاية الّتي كانت فيها رفاتُه. فاستضاء وجهُه وجسدُه لم يزل بعدُ جاثياً يابساً قبل الدّفن...وقد لازمت نعمة الرّوح القدس رفاتَه الشّريفة واستبان مسكناً للنّور الإلهيّ ومنبعاً للعجائب والمواهب ومستشفىً عامّاً مجانيّاً. لذلك لُقِّب بالعجائبيّ...» هذا وقد أعلنت قداسة القدّيس غريغوريوس في مجمع عقد في القسطنطينيّة بعد تسع سنوات من رقاده، في العام ١٣٦٨م، برئاسة تلميذه وصديقه، فيلوثاوس، البطريرك المسكونيّ، وهو الّذي كتب سيرته. وقد وصفه المجمع بأنّه «الأعظم بين آباء الكنيسة».

﴿ الطروبارية ﴾

يا كوكب الرأي المستقيم، وسند الكنيسة ومعلّمها، يا جمال المتوحدين ونصير الّلا يُحارب للمتكلّمين باللاهوت، غريغوريوس العجائبي، فخر تسالونيكية وكارز النعمة ابتهل على الدوام في خلاص نفوسنا .

رحلة في رسائل بولس الرّسول

ماريّا قبارة

نشأة بولس الرّسول

وُلد بولس وترعرع يهوديّاً، في طرسوس من أعمال كيليكيا (أع٢٢: ٣) سنة ٥ ب. م. يدعو بولس نفسه «عبرانيّاً ابنَ عبرانيّ» (فيل٣: ٥). إنّ شهادة بولس الخاصّة حول ذاته «اسرائيليّ، من نسل إبراهيم، من قبيلة بنيامين» (فيل٣: ٥). فخور بحفظ ذويه للشّريعة، «فأنا مختون في اليوم الثّامن» ويضيف: «إنّي من ذريّة إسرائيل»، «من سبط بنيامين»، «عبرانيّ ابن عبرانيّ»، «فريّسيّ». يقول بولس الرّسول بأنّه «فرّيسيّ» مشيراً بذلك إلى المرحلة الّتي درس فيها عند معلم فرّيسيّ.

إنّ التّدريب الفرّيسيّ لبولس هو مصدر امتلاكه القويّ للكتاب المقدّس، ليس فقط التّوراة، بل أيضاً الأنبياء والكتب، وهذا ما يبيّن استعماله كثيراً من النّصوص الكتابيّة في رسائله. كان بولس الرّسول ذا كفاءة عالية في اليونانيّة، حتّى ولو لم يكن أسلوبه الأكثر أناقة، ويستعمل كلا الأسلوبَين، النّقديّ (diatribe) المستعمل كثيراً في المدارس الفلسفيّة، كما أيضاً الأفكار الرّواقيّة (روم١: ٢٨). وهناك شهادة يوسيفوس تقول أنّ يونانيّته المحكيّة لم تكن جيّدة، «كون شعبنا لا يُحبّذ أولئك الأشخاص الّذين تمكّنوا من ألسن أمم عديدة، أو الّذين يزيّنون أسلوبهم بالأقوال المأثورة... بل يعتبرون حكماءَ فقط أولئك الّذين يمتلكون معرفة دقيقة للشّريعة، والّذين يستطيعون أن يفسّروا معنى الكتب المقدّسة»١

إمتداد رسائل بولس الرّسول

بعد ارتداده الّذي جاء بعد استشهاد استفانوس بوقت قليل (بين سنة ٣٣ وسنة ٣٧)، قضى بولس ثلاث سنوات في بلاد العرب وفي دمشق. ثمّ قام بالسّفر إلى أورشليم قبل أن يعود إلى كيليكيا ليقيم فيها (غل ١: ١٦– ٢١). بعد خبرة إنطاكية الرّسوليّة (كرازة لليهود وللوثنيّين، أع ١١: ١٩– ٢٦)، قام بثلاث رحلات رسوليّة: قبرص وآسية الصّغرى (٤٥– ٤٩)، آسيا الصّغرى، مكدونيا واليونان (٤٩–٥٢)، أفسس، آسيا الصّغرى، مكدونيا واليونان (٥٣–٨٥)

عزم بولس أن يحمل الإنجيل إلى غربيّ حوض البحر المتوسّط، إلى إسبانيا حيث يذهب مارّاً بروما. ولكنّه قبل ذلك أراد أن يحمل إلى كنيسة أورشليم المحتاجة، مساعدة ماديّة من سائر الكنائس. ولكنّه أوقف في عيد العنصرة سنة ٥٨ في أورشليم. سُجن في قيصريّة (٥٨– ٦٠) فرفع دعواه إلى قيصر. أرسل إلى روما (٦٠– ٦١) وقضى فيها سجيناً (٦١– ٦٣) بحراسة أحد الجنود. أفرج عنه فذهب إلى إسبانيا وإيطاليا والشّرق وأوقف مرّة ثانية وسجن، ثمّ مات شهيداً في رومة سنة ٦٧.

كان الوعظ أحد أهمّ أعماله الرّسوليّة. وقد حفظ لنا لوقا في سفر الأعمال نماذج من كرازته لليهود (أع ١٣: ١٦– ٤١، في أنطاكيا بسيديا)، وللوثنيّين (أع ١٧: ٢٢– ٣١، في أثينا). كما ترك لنا وصيّة بولس الرّعائيّة في خطبته أمام شيوخ أفسس. نجد في هذه الخطبة رقّة قلب الرّسول كما نجد تعليماً مفيداً لكلّ مسؤول عن العمل الرّعائيّ (أع ٢٠: ١٧– ٣٥)

ومدّ بولس رسالته في الكنائس، فأرسل إليها رسائل تتجاوب ووضعها، وتردّ على الأسئلة الّتي طرحتها عليه. إذا وضعنا جانباً الرّسالة إلى روميّة بوجهها العامّ، فقد توجّهت كلّ رسالة إلى جماعة محدّدة وأخذت بعين الاعتبار مشاكلها. وبما أنّ

هذه الرّسائل تتوزّع فيها حياة الرّسول على مدى اثني عشر عاماً، فهي تعرّفنا إلى «إنجيله» وإلى نموّه في فهم سرّ المسيح.

تجذّر فكر بولس في حياة الكنائس والعمل الرّساليّ، فعمل على التّعمّق في الإيمان. وحين انتقال الكنيسة إلى الوثنيّين، لعب بولس دوراً أوّل فجعل الكنائس تعبر حدود العالم اليهوديّ، وأمّن الحرّيّة للوثنيّين الّذين قبلوا الإنجيل، وولدت الكنيسة في العالم اليونانيّ والرّومانيّ، وتغلغل في هذا العالم ضمير الإنجيل.

أسلوب كتابة الرّسائل في العهد القديم

- تبدأ الرّسالة بذكر اسم المرسل واسم المرسل إليه.
- فعل الشّكر.
- وبعد اللّياقات العامّة يعالج الكاتب المواضيع الّتي يريد ذكرها.
- وتنتهي الرّسالة بالتّمنّي والسّلام.

وبهذا الأسلوب كانت طريقة بولس في تدوين رسائله. لم يكن يدوّن مقالاً حسب تصميم جامد. إنّه يحاول أن يردّ على أسئلة ملموسة واجهت الجماعات الّتي بشّرها. لهذا عندما نراه يعالج سؤالاً، يبتعد عن الموضوع، ثمّ يعود إليه.

لم يكن بولس يكتب رسائله بيده، بل يمليها على كاتب يرافقه (غل ٦: ١١). ثمّ تُرسل إلى جماعة بواسطة شخص أمين. مثلاً، حمل أبيفراس رسالة بولس إلى كولوسي (كو ٤: ١٢)، وقد يكون استفانوس ورفاقه حملوا الرّسالة الأولى إلى كورنثوس (١ كور ١٦: ١٧)

رسائل بولس الرّسول

تُنسب إلى القدّيس بولس ثلاث عشرة رسالة. ويزيد عليها التّقليدُ الشّرقيّ الرّسالةَ إلى العبرانيّين.

وبحسب التّرتيب الزّمنيّ:

- الرّسالة الأولى والثّانية إلى تسالونيكي.
- الرّسالة الأولى والثّانية إلى كورنثوس.
- الرّسالة إلى غلاطية.
- الرّسالة إلى فيليبي.
- الرّسالة إلى أفسس.
- الرّسالة إلى كولوسي.
- الرّسالة إلى فيليمون.
- الرّسائل الرّعائيّة.
- الرّسالة إلى أهل كولوسي

كولوسي مدينة في جنوب مقاطعة فريجيا، في أواسط آسيا، قريبة من اللاّذقيّة، وعلى مسافة ٢٠٠كلم من شرقي أفسس. بشّر بولس في فريجيا، في جولتيه الثّانية والثّالثة، وهو ماضٍ إلى أفسس. لكنّه لم يصل إلى مدينة كولوسي ولا مرّ باللاّذقيّة (كو١:٢). إنّ تلميذه أبيفراس هو مؤسّسها، وهو من نقل إلى معلّمه إيمانها ومحبّتها وأخبارها (كو١:٧-٩). على أثر ذلك كتب بولس رسالة وجّهها إلى كنيسة كولوسي مع رفيقه تيخيكس:

:»الأخ الحبيب والخادم الأمين والعبد معنا في الرّبّ» (كو٤:٧)

الرّسالة إلى أهل كولوسي صغيرة الحجم (أربعة إصحاحات). وعلى عكس التّحيّة العامّة الّتي بدأ بها بولس رسالته إلى أفسس، فإنّه يحيّي مخاطبيه في كنيسة كولوسي بالاسم، ويذكر أوّل من يذكر، تيموثاوس الأخ: «من بولس رسول المسيح بمشيئة الله وتيموثاوس الأخ، إلى القدّيسين في كولوسي والإخوة المؤمنين في المسيح» (كو١:١-٢).

الرّسالة موجّهة إلى جماعة معيّنة معظم أهلها من أصل وثنيّ، أراد بولس أن يُشركهم في الخلاص: «وأنتم الّذين كنتم قبلاً أجنبيّين وأعداء في الفكر في الأعمال الشّريرة قد صالحكم الآن» (١:٢١-٢٢). تتميّز الرّسالة إلى كولوسي بالتّشابه مع الرّسالة إلى أفسس، حتّى قال أحد الباحثين إنّهما توأمان إلى حدٍّ ما. يتشابهان من ناحية الإنشاء والتّشابه في الألفاظ وعرض المواضيع والعبارات الخاصّة بينهما.

الرّسالة إلى أفسس

أفسس ذاك المرفأ الواسع في محافظة آسيا (تركيّا الغربيّة) الرّومانية، تأسّست – شأنها شأن عدد من المستوطنات اليونانيّة في أناتولا (الأناضول الحالي)– على الشّاطئ.

ومن أفسس كانت تنطلق الطّرق، جاعلة منها أعظم مركز تجاريّ في آسيا الصّغرى وغربي طوروس.

مرّ بولس في أفسس، وهو ماضٍ من كورنثوس إلى أورشليم. دخل إلى المجمع كعادته فلقيَ بعض التّجاوب، وطلب منه اليهود أن يطيل الإقامة بينهم. ولكنّه مضى تاركاً وراءه برسكيلا وأكيلا. وبعد عودته من أورشليم ودورته في آسيا الصّغرى ماراً بانطاكيا وغلاطية وفريجيا، عاد إلى أفسس برفقة تيطس (اع١٩:١). فوجد هناك بعض المسيحيّين، وبجانبهم تلاميذ يوحنّا (الأثني عشر تلميذاً) الّذين جهلوا الرّوح القدس. عمّد بولس هؤلاء ووضع عليهم يده.

رسالة بولس الرّسول إلى الأفسسيّين ذات أهمّيّة كبرى من حيث معالجةُ موضوع الكنيسة بشكل عامّ، بالمعنى الأشمل للكلمة الّتي «رأسها المسيح» (افسس ٤:١٥). لغة الرّسالة هي لغة التّمجيد (١: ٣-١٤) والصّلاة (١:١٥-٢٣، ٣:١٤-١٩) ولغة اللّيتورجيا (٣:٢٠-٢١)

تشدّد فصول الرّسالة على الوحدة في كنيسة المسيح الّتي جمعت معاً اليهود والأمم في بيت الله. لا توجد في الرّسالة تحيّات شخصيّة، بل عموميّة «سلام للإخوة ومحبّة» (افس١:١)

مدينة كورنثوس

مدينة يونانيّة متميّزة، تبعد حوالي ٤٠ ميلاً غرب أثينا، يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد حيث استقرّت فيها القبائل القديمة. اشتهرت مدينة كورنثوس القديمة في العالم الهيلينيّ، فقد دعاها هومر «كورنثوس الثّريّة»، وقال عنها شيشرون: «نور كلّ اليونان». عرفت بغناها وعظمتها بكونها مدينة صناعيّةً ضخمة، خاصّة في بناء السّفن حوالي عام ٨٠٠ ق.م. يقول «Thucydides» أنّ أوّل السّفن الحربيّة بنيت في كورنثوس عام ٦٦٤ ق.م.

تضمّ كورنثوس ميناءين هما كنخريا وليخيوم، إذ تقع عبر مضيق برّيّ بين بحرين هما الإيجي والأدرياتيكي. وممّا يزيد من أهمّيّتها أنّها تقع على طريق البرّيّ الّذي يربط الشّرق والغرب؛ فربطت روما عاصمة العالم الرّومانيّ بالشّرق.

هذا وقد اشتهرت كورنثوس كمركز للفنون المختلفة، خاصّة الفنّ المعماريّ. وقد ترك الفينيقيون الّذين استقرّوا في هذه المدينة منذ وقتٍ مبكرٍ جدّاً بصماتِهم من فنون صناعيّة مثل الصّباغة والنّسيج، كما تركوا بصماتهم الدّينيّة وأساطيرهم. وكان نحاس كورنثوس وفخّارُها مضربَ الأمثال.

كانت كورنثوس مدينة مفتوحة على العالم، ليس فقط كأعظم مدينة تجاريّة يونانيّة، وإنّما أيضاً لإقامة الدّورات الرّياضيّة في أسثيموس مرّة كلّ عامين، وكانت تأتي في الدّور التّالي بعد الأولمبيّات إن لم تنافسها.

هدمتها الجيوش الرّومانيّة بقيادة سنة ١٤٦ ق.م. وقتلت رجالها وسَبَت نساءها وأطفالها. واستعادت كورنثوس مجدها وغناها سريعاً. أعاد بناءها يوليوس قيصر عام ٤٦ ق.م. وجعلها مقاطعة رومانيّة، وفي سنة ٢٧ ق.م. عندما انعزلت اليونان عن مكدونيا صارت كورنثوس عاصمة إقليم أخائيّة وموطن الحاكم الرّومانيّ، ولم تكن هذه المقاطعة تحت إشراف الإمبراطور بل تحت حكم مجلس الشّيوخ الرّومانيّ. استمرّ ازدهارها حتّى استولى عليها الأتراك عام ١٤٥٨.

ضمّت كورنثوس دياناتٍ كثيرةً لأنّها كانت مدينة مفتوحة، فقد جاء إليها مجموعات من اليهود الّذين طردهم كلوديوس قيصر من روما مثل أكيلا وبريسكلا (أع١٨: ٢)، كما جاءَ إليها يهود من فلسطين للتّجارة، أو اشتراهم سكّانها عبيداً. ووُجد في المدينة آلهة مصريّة ورومانيّة وآلهة من الشّرق الأقصى. هذا بجانب معبد أفروديت إلهة الجمال والحبّ الّذي أقيم على قمّة أكمتها. صارت مضرب الأمثال في الخلاعة، فقد تكرّس للمعبد حوالي ١٠٠٠ كاهنة وثنيّة للفساد لحساب المعبد.

مدينة كورنثوس الّتي عرفها بولس الرّسول تحطّمت جزئيّاً عام ٥٢١م بزلزال، وتدمّرت تماماً بزلزال آخر عام ١٨٥٨م، وأُعيد بناء مدينة كورنثوس الحديثة على بعد حوالي ٤ كيلومترات من موقع كورنثوس القديمة.

بولس الرّسول في كورنثوس

بشّرها الرّسول بولس (أع ١٨) حوالي عام ٥٣ م، بقي فيها ١٨ شهراً وهى أكبر مدّة قضاها الرّسول في مدينة ما للخدمة بعد أفسس. ثمّ زارها مرّتين بعد ذلك.

بدأ خدمته في المجتمع اليهوديّ يكرز لليهود والأمم الدّخلاء، وكان يقيم مع أكيلا وبريسكيلا ويعمل معهما في صناعة الخيام (أع ١٨: ١- ٣) ؛ ونجح في اجتذاب كريسبس رئيس المجمع وأهل بيته (أع ١٨:٨)، لكنّ اليهود قاوموه بشدّة، فقال لهم: «دمكم على رؤوسكم؛ أنا بريء، من الآن أذهب إلى الأمم» (أع ١٨: ٤- ٦). وذهب إلى يوستس حيث تكوّنت كنيسة تضمّ الكثيرين.

إذ ترك بولس الرّسول مدينة كورنثوس بعد خدمة ناجحة جدّاً لمدّة ١٨ شهراً تحرّكت الأحداث بسرعة فائقة، فقد حدث انشقاق خطير وظهرت أربع فرق متضاربة، كما ظهرت مشاكل سلوكيّة وعقائديّة تفقد الكنيسة قدسيّتها وتحطّم إيمانها. لهذا كان بولس الرّسول قلقاً على الشّعب.

وصلته رسالة من بيت خلويي (١١:١) تخبره عن الانقسام الّذي حلّ بالكنيسة مع معلومات أخرى. تأثّر بولس الرّسول بما سمعه فأرسل تلميذه القدّيس تيموثاوس في إرساليّة للمصلحة مع توصيات كثيرة (١٧:٤؛ ١٠:١٦)، غير أنّ هذه الرّسالة ربما وصلت أوّلاً.

وقد بلغه بتقرير خاصّ بالزّنا شعر الرّسول بالالتزام أن يبعث إليهم برسالة يحذّرهم فيها من الشّركة مع الفاسدين أخلاقيّاً، وهي مفقودة الآن.

جاءت الرّسالة هادئة، تقدّم حلولاً عقليّة إيمانيّة واضحة ومقبولة. تتّسم بالحزم والجدّيّة، تدين بكل قوّة كلّ خطأ أو فساد أو انحراف إيمانيّ، فتزال الشّكوك وتسنُد الإيمان. تقدّم هذا كلّه بروح الحنوّ الفائق والحبّ الصّادق، خلال الحقّ الإلهيّ وعمل نعمة الله. تقدّم فكراً ثاقباً ونظرة متّسعة وعميقة للغاية، وتهتمّ بالحياة الإيمانيّة العمليّة.

جاءت الرّسالة في ترتيبٍ فائقٍ فلا يجد القارئ صعوبة أن يتتبّع

الكاتب وهو ينتقل من نقطة إلى أخرى. وتقدّم أحاديث عقائديّة هامّة تخصّ أقنومي المسيح والرّوح القدس والإفخارستيّا والقيامة، كما تكشف لنا عن طبيعة الاجتماعات الكنسية والخدمة في الكنيسة الأولى. وتقدّم لنا صورة عن الأخطاء والشّرور الّتي لحقت بالمؤمنين القادمين حديثاً من الوثنيّة.

الرّسالة إلى غلاطية

غلاطية منطقة قديمة تقع في وسط الأناضول بين نهري هاليس (كيزيليرماك اليوم) وسانجاريوس (في ساكاريا). عاش بها الكلت منذ القرن الثالث قبل الميلاد إلى أن تأثّروا بالحضارة الهيلينية. تمسّك أهل غلاطية بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم بالرغم من ابتعادهم عن مراكز الحضارة الكلتية. احتوت غلاطية على العديد من الضرائح المعروفة باسم «درونميتون». انتشرت المسيحية في تلك المنطقة بعد توجيه الرسول بولس رسالة إلى أهل غلاطية. في القرن الخامس ذكر جيروم بأن لغة أنقرة كانت شبيهة باللغة المستخدمة قرب مدينة ترايز بالقرب من نهر موسل الواقع بين ألمانيا وفرنسا اليوم.

من المحتمل أن يكون بولس الرّسول هو مؤسّس الكنائس الموجودة في غلاطية ولكن من المؤكّد أنّه مرّ من هناك وبشّر في تلك المنطقة (أعمال ١٦ : ٦)، وبعد أن غادرها جاء إليها من أورشليم مسيحيّون ذو أصول يهوديّة ومتمسّكين بتعاليم ديانتهم القديمة، وحاول هؤلاء أن يفرضوا على المسيحيّين الجدد المهتدين من الوثنيّة شريعة الختان بحجّة تثبيتهم في عهد اللّه، كما أشاعوا بينهم بأنّ بولس هو من تلاميذ الرّسل وليس معادلاً لهم أي أنّه لا يجب اعتباره رسولاً شرعيّاً للمسيح فهو لم يره خلال حياته الأرضيّة. تأثّر الغلاطيّين بهذه التّعاليم وابتدأوا يحفظون الأعياد اليهوديّة ولكنّهم لم يمارسوا الختان.

ومن هنا جاء هدف كتابة هذه الرّسالة رغبة بولس بإثبات شرعيّة رسوليّته، وشرح كيفيّة الخلاص بالمسيح عن طريق النّعمة وليس بحرفيّة النّاموس بحسب رأيه.

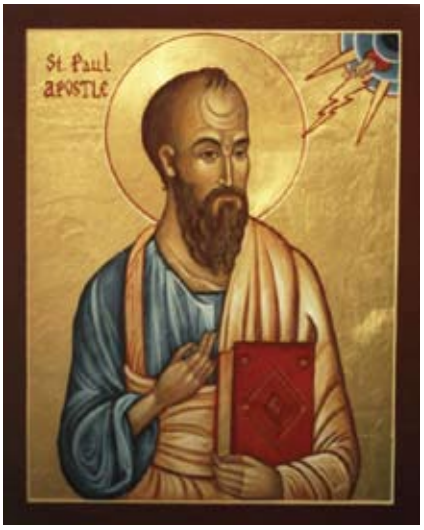

الرّسالة إلى غلاطية هي إحدى رسائل العهد الجديد الّتي تنسب إلى الرّسول بولس، وهي موجّهة إلى الكنائس الموجودة في إمارة غلاطية الرّومانيّة – تقع اليوم في تركيّا، ويدور محتوى هذه الرّسالة حول الخلاف الّذي كان قائماً آنذاك حول ضرورة تقيّد المسيحيّين ذوي الخلفيّة الوثنيّة بالشّريعة الموسويّة أو لا. تُعتبر هذه الرّسالة من أكثر رسائل بولس الرّسول تعمّقاً في القضايا اللاّهوتيّة وكان لها التّأثير الأكبر في الفكر البروتستانتيّ.

بولس الأخ الكبير والرّاعي

من خلال رسائله كلّها نتعرّف على بولس الأب والقائد والأخ الكبير والرّاعي. هكذا كان قبل اهتدائه، وهكذا ظلّ بعد اهتدائه. وهذه الظّاهرة كانت لها آثارها في عمله وعلاقاته.

من الواضح جدّاً أنّه بقدر ما كان المترئّس للرّحلات والتّعليم، كان أيضاً الرّسول الّذي يقوم بأعماله بمرافقة آخرين، أو على الأقلّ بإرسال الآخرين.

كان لديه شخصيّة ديناميكيّة فاعلة ومندفعة، شخصيّة تشعر وتفكّر وتغامر وتحارب وتواجه وتتفانى. ولكن بولس يوجّه كلّ هذه الميزات باتّجاه شخص يسوع المسيح، ويوظّف كلّ طاقاته وضعفه باتجّاه القداسة لخدمة إنجيل النّعمة.

درب الآلام

بستان جشيمان

ضيقٌ أَلَمّ بِنَفْسي كادَ يَقْتُلُني … هَلاّ سَهِرْتُمْ مَعِي يَاخَيْرَ إخواني

نامَ الجَميعُ وربُّ القَوْمِ مُضْطَرِبُ … وَرَاحَ يَجثو لِرَبٍّ ضِمْنَ بُسْتانِ

أَبَتاهُ إنْ شِئْتَ هَذَا الكَأْسَ تَرْفَعُهُ … وَإنْ وَدَدْتَ سَقيْتَ الكأْسَ وِجْداني

ناموا. فَساعَة ابْنِ اللهِ قَدْ أَزِفَتْ … إنّي افْتَدَيْتُ سُلالَتَكُمْ بِتِحْنَاني

الآنَ يَطْبَعُ يَهوذا الغاشُّ قُبْلَتَهُ … لِيَكْتُبَ الدّهْرُ شَطْراً أحْمَراً قَانِ

سِمْعانُ قَبْلَ صِياحِ الدِّيكِ تُنْكِرُني … وَتَذْرِفُ الدّمْعَ مُرّاً كَيْفَ تَلْقاني

وثَلِّثَ القَولَ بالتِّكْرارِ يَطْلبهُمْ … إلى الصّلاةِ فَلا جَدْوى بِثَقْلانِ

صَلّوا لِئَلّا امتِحانُ الشّرِّ يَغلِبَكُمْ … وسَلِّمَ النّفْسَ طَوْعاً في جُشَيْمانِ

فَالرّوحُ تَبْقى مَدى الأَيّامِ شامِخَةٌ … وتَضْمَحِلُّ قِوى الأَجْسادِ بِتَفانِ

الآنَ نَاموا فَسَيّانِ لَدَى كَبِدي … وخَائِنُ اللهِ مِنْكُمْ جَاءَ بالجانِي

حَرّكَ السّيْفُ ذَوْداً عَنْ مُخَلّصِنا … فَقُضّتِ الأُذْنُ مِنْ عَبْدٍ لِسُلْطانِ

فَرَدّ مُنْقِذُ هذا الكَوْنِ مُعْتَرِضاً … يَاحَامِلَ السّيْفِ أَنْتَ بِحَدِّها فانِ

لَوْلا طَلَبْتُ مِنَ الخَلّاقِ يَدْعَمُني … لَكانَ أَرْسَلَ لي جُنْداً كَقِطْعانِ

وَأَمْسَكَ القِطْعَةَ المُلْقَاةَ أَرْجَعَها … بِجانِبِ الرّأسِ والإعْجازُ ربّاني

مَنْ تَطْلُبونَ؟ يَقولُ الابنُ في جَلَلٍ … يَسوعُ مَطْلُبنا ما قالَهُ الفاني

إنّي أنا الرّجُلُ المَطْلُوبُ قالَ لَهُمْ … فَلْتَأْخُذوني!! أَصابَ الجَمْعُ بُهْتانِ

وَخَرّوا أَرْضاً جَميعاً مِنْ مَهابَتِهِ … هَيّا خُذوني وَفيما الجُنْدُ تَخْشاني

وأَيْقَنَ الجَمْعُ أَنّ يَسوع يرْغَبُها … ويُسْلِمُ النّفسَ في حُبٍّ وتحنانِ

عبدالله سلّيط

الألوان الكهنوتيّة الليتورجيّة

ترجمة من موقع www.asna.ca

للتّعبير عن الاحتفال بالمناسبات الكنسيّة تستخدم الكنيسة ألواناً متعدّدة... وتَغَيُّرُ الألوانِ يتجلّى من خلال ملابس الكهنة وستائر الهيكل والمائدة المقدّسة والمذبح وستائر الكنيسة الأخرى، فلنتعرّف على هذه الألوان الّتي ستمكّننا من التعرّف على نوع المناسبة المحتَفَل بها في الكنيسة...

١- **الذّهبيّ:** مجموعة من الأعياد وأيّام ذكرى ربّنا يسوع المسيح والأنبياء والرّسل و القدّيسين.

٢- **الأزرق والأبيض:** الأعياد وأيّام الاحتفال بالمناسبات المختصّة بسيّدتنا والدة الإله.

٣- **الأرجوانيّ أو الأحمر الغامق:** أيّام ذكرى الصّليب، رمزاً لشهادة والذبيحة الدمويّة.

٤- **الأحمر:** الأيّام الّتي يتمّ فيها ذكرى الشّهداء، يوم الخميس العظيم (الأسرار)، حيث يرتدي الكهنة أثواباً حمراء على الرّغم من أنّ المذبح مغطى بقطعة قماش بيضاء.

٥- **الأخضر:** يُلبس في الأعياد وأيّام الذّكرى الرّهبانيّة والقدّيسين، كما أنّه كان يُرتَدى في ذكرى دخول ربّنا إلى القدس (أحد الشّعانين)، ويوم عيد العنصرة، ويوم الإثنين بعد عيد العنصرة.

٦- **خلال فترات الصّوم، تُلبَسُ الألوان الدّاكنة وهي:** الأزرق الدّاكن، الأرجوانيّ، الأخضر الدّاكن والأحمر الدّاكن.

٧- **الأسود أو البنفسجي الغامق:** يُلبَس في أيّام أسبوع الصّوم الكبير، وخاصّة في الأسبوع الأوّل من الصّوم الكبير وأسبوع الآلام.

٨- **الأبيض:** يُلبَس للاحتفال بأعياد الغطاس والتّجلي. وأيضاً يستخدَم اللّون الأبيض ابتداءً من سبت النّور حتّى نهاية صلوات عيد الفصح.

صلاة مديح والدة الإله

الأرشمندريت يوسف يعقوب

مقدمة

وضع هذا المديح أو التّسبيح والنّشيد (إيمنوسHYMNOS) في اليونانيّة على أربعة وعشرين بيتاً بعدد حروف الهجاء اليونانيّة (من أحرف A-B إلى حرف Ω) وكلّ بيت منها يبتدئ بحرف من حروف الهجاء على التّتابع، بعضها مطوّل ويُختَم بالهتاف (افرحي يا عروساً لا عروسَ لها)، وبعضُها موجَزُ العبارة ويُختَم بالهتاف (هللويا) أي سبّحوا الرّبّ.

وقد قسّمتِ الكنيسة الملكيّة اليونانيّة البيوت الأربعة والعشرين إلى أربعة أدوارٍ؛ لكي يكون لكلّ أسبوع من الصّوم العظيم دورٌ بستة بيوت، ومجموعُ الأدوار كلُّها للأسبوع الخامس من الصّوم ويُتلى معها القانون المؤلّف من تسع أوديات (تسابيح =ODIES) فجاء مع الأربعة والعشرين بيتاً من أجمل ما حرّرته أقلام الكتبة الكنسيّين القدماء وألسن البلغاء.

ويجدر بنا أن نذكر هنا بالإضافة إلى أنّ هذا النّشيد كانت تلاوته محصورةً بين جدران كنيسة واحدة من كنائس اللّه في القسطنطينيّة البيزنطيّة ونعني بها كنيسة فلاخرنون.. ومن أوائل القرن الثّالث عشر عمّت تلاوته كنائس الشّرق كافّة في أيّام معدودات من الصّوم الكبير.

البيت الأوّل

في هذا البيت إشارة واضحة إلى الملاك المتقدّم أي الملاك جبرائيل وهو في مقدّمة الألوف المتألّفة من طغمات الملائكة، وهو الّذي أُرسل من السّماء ليبشّرَ والدة الإله مريم بأنّها ستلد المسيح الّذي لانهايةَ لمُلكِه وذلك بقوّة الرّوح القدس وحلوله عليها وفحوى هذا البيت مأخوذ ولا شكّ من رواية القدّيس والرّسول

لوقا في إنجيله حيث يقول:

«**وفي الشّهر السّادس أُرسل الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة في الجليل تسمّى النّاصرة...**» (لو١: ٢٦-٣٨). ويلي ذلك الحوار الّذي تمّ بين مريم والملاك جبرائيل وهذا الملاك ظهر للكاهن زكريّا ليقول له أنّ امرأتَه العاقرَ أليصابات ستلد ولداً.

البيت الثّاني

إنّ القدّيسة (مريم) لمّا عاينت نفسَها في غاية الطّهارة قالت لجبرائيل بجرأة...

في هذا البيت جواب مريم البتول للملاك جبرائيل وهنا تدعى مريم العذراء قدّيسة لطهارتها من كلّ عيب وجاء في ختام هذا البيت وسواه من البيوت التّالية الهتاف الموجز (هليلويا) وهو هتاف موجز ويدلّ على تسبيح اللّه (سبحوا اللّه).

البيت الثّالث

في هذا البيت من النّشيد الْتِماسٌ من مريم العذراء أن تعلم ما لا يمكن أن يرتقي العقل إلى معرفته وهو بنصّه تابع للحوار بينها وبين الملاك، هنا يتمثّل الخوف للملاك في إجابته على السّؤال المطروح أمامه من البتول:

«**كيف يمكن أن يولد من أحشاء نقيّة ابن**» في الإجابة البليغة من جهة لاهوتيّة سامية نقرأه أنّ البتول مريم هي حافظة سرّ الرّأي الّذي لا يوصف وإيمانُ المحتاجي الصّمت.

وإنّ هذا الّذي تسأل عنه هو مقدّمة عجائب المسيح ومنه تشعّبت بقيّة عجائبه المدوّنة على صفحات الإنجيل الشّريف وفيما يلي كلام يشير إلى سلّم يعقوب الّذي رآه في المنام.

البيت الرّابع

فيه الرّدّ على سؤال والدة الإله وهو حقيقة تجسّد الكلمة في أحشائها بحلول الرّوح القدس، ولا نشكّ بأنّ هذا البيت من النّشيد جاء مبنيّاً على آية الرّسول لوقا ٣٥ في الفصل الأوّل من إنجيله الشّريف.

«**فأجاب الملاك وقال لها أنّ الرّوح القدس يحلّ عليك وقوّة العليّ تظلّلك ولذلك فالقدّوس المولود منك يدعى ابن الله**»

البيت الخامس

فيه إشارة إلى ذهاب مريم البتول إلى مدينة يهوذا عند نسيبتها أليصابات لتهنّئها بما وُعِدت به من ولادة ابن يكون عظيماً، وفي هذه المقابلة بين مريم وأليصابات نرى انقضاء العهد القديم في حبل وولادة يوحنّا وهو خاتمة أنبياء هذا العهد وبداية العهد الحديث في حبل وولادة سيّدنا يسوع المسيح من مريم العذراء، وهنا نلاحظ أنّ هتافات الجنين مأخوذةٌ من البيئة الّتي عاش فيها يوحنّا المعمدان.

البيت السّادس

فيه تعبير عن اضطراب يوسف خطيب مريم العذراء الّذي لم يطمئن له بل إلى حين ظهر له الملاك في الحلم وأنبأه بقضاء اللّه الأزليّ بأنْ يرسل الفادي إلى العالم مولوداً من مخطوبته القدّيسة، وكان اضطراب يوسف معقولاً لأنّ الفتاة الّتي توجد في حالة حبل بدون زواج كان قصاصُها الرّجم بالحجارة وذلك حسب ناموس موسى.

البيت السّابع

فيه إشارة إلى سجود الرّعاة للمولود العظيم وتسبيح الملائكة الّذين ظهروا حين ولادته يسبّحون اللّه ويمجّدونه، وبشّروهم بالفرح العظيم الّذي يخصّ كلّ الشّعوب.

هنا تتمثّل أمامنا قصّة ولادة سيّدنا يسوع المسيح في بيت لحم حيث كان رعاةٌ يبيتون، وظهور جمهور من الجند السّماويّين كما وردت في إنجيل القدّيس لوقا.

البيت الثّامن

في هذا البيت إشارة واضحة إلى مجيء المجوس من المشرق (ربّما من بلاد الفرس) إلى أورشليم، والّذين لمّا رأوا كوكباً (نجماً غريب المظهر) ومسيّراً نحو هذه المدينة اتّبعوه ليستقصوا عن الملك الّذي يشير إليه بظهوره وسيره الغريب.

البيت التّاسع

جاء هذا البيت من النّشيد متمّماً للبيت السّابق وفيه كلام عن فتيان الكلدانيّين أي المجوس الّذين قاموا بتقدمة الهدايا إلى البتول، وفي النّصّ الإنجيليّ إلى الصّبيّ (أي المسيح) وهتافهم إلى العذراء لأنّها والدة النّجم (المسيح) الّذي لا يغيب وفجر النّهار السّريّ.

وفي هتافات المجوس الموجّهة إلى البتول يُشار إليها بنعوت متعدّدة: مُطفأة أتون الضّلالة أي مُبطلة عبادة الدّيانات الفاسدة

ومستنيرةً مساري الثّالوث أي مُعلنة الإيمان بالثّالوث الأقدس ومخرجة المغتصب العادم الإنسانيّة من الرّئاسة ومظهرة محبّة المسيح للبشر ومخلصة ومنقذة العالم من عبادة الأصنام المتنوّعة ولاسيّما عبادة النّار.

البيت العاشر

فيه الكلام عن رجوع المجوس إلى بلادهم وتبشيرهم بالمخلّص المولود في بيت لحم اليهوديّة هذا البيت من النّشيد تتمّة للبيتين السّابقين وخاتمة لزيارة المجوس للمولود العظيم في بيت لحم، وحكاية هذا البيت المختصر مدوّنة في إنجيل متّى حيث يقول:

«ثمّ أوحى الملاك إلى المجوس في الحلم ألاّ يرجعوا إلى هيرودس فرجعوا في طريق أخرى إلى بلادهم بابل».

البيت الحادي عشر

في هذا البيت إشارة إلى ذهاب الأسرة المقدّسة إلى مصر الّتي سقطت أصنامها عند وصول السّيّد المسيح إليها، ونرى في هذا النّشيد أنّ أشخاصاً جديدة ترفع الهتافات إلى البتول، وبعد أن تنسّب لها نهوضُ البشر وسقوطُ الأبالسة ووطأةُ ضلالة الخديعة وفضح غشّ الأصنام يقتبس الهاتفون مادّتهم الرّمزيّة من بعض حوادث العهد القديم أرض الميعاد الّتي يدرّ منها اللّبن والعسل، في ذلك غرق فرعون، وإرواء الظّمأى من الصّخرة والعمود النّاريّ وحكاية المنّ.

البيت الثّاني عشر

فيه إشارة إلى ترحيب سمعان الشّيخ بالمسيح لمّا ذهب به يوسُف وأمّه مريم إلى الهيكل عند تمام الأربعين يوماً من ولادته بحسب الأوامر الشّرعيّة الموسويّة.

البيت الثّالث عشر

في هذا البيت من النّشيد تمجيد لبتوليّة مريم العذراء، وهنا الهاتفون يزيّنون ذِكرَ بتوليّتها بنُعوتٍ بسيطة في وضعها، ولكنّها عميقةٌ في معناها، وهكذا فإنّهم يدعونها زهرةً وإكليلَ الإمساك، ورسمَ القيامة، وسيرةَ الملائكة، وشجرةً لذيذةَ الطّعم، وغرسةً ذاتَ أوراق حسنة، وحاملةً مرشد الضّالّين، ووالدةَ منقذ المأسورين، وشفيعةً عند الدّيّان، وغفرانَ الخطأة، وسربالاً، وودّاً لكلّ شوق.

البيت الرّابع عشر

في هذا البيت سلامُ جميعِ المؤمنين للبتول العذراء.

البيت الخامس عشر

في النّشيد يعلّمنا بأنّ المسيح الإله المتجسّدَ ما برح وهو على الأرض حاضراً بألوهيّته في السّماء لأنّه ابنُ الّذي يملأ الكونَ والسّماوات والأرض في وقت واحد، وهنا يمثّل والدة الإله بأنّها بابٌ للسّرّ المكرّم، وسماعٌ ملتبس عند الكفّار، وفخرٌ للمؤمنين، ومركبةٌ للّذي على الشّاروبيم، ومنزلٌ لمن هو على السّيرافيم، وبابٌ مفتوح للفردوس، ومفتاحٌ لملكوت المسيح وبالتّالي رجاءُ الخيرات الأبديّة.

وكلّ هذه النّعوت لها صداها في شخصيّة والدة الإله الّتي فتحت للمؤمنين أبواب الفردوس وملكوت السّيّد المسيح وكانت قد أغلقتها حوّاء بمعصيتها لإرادة الله.

البيت السّادس عشر

فيه دهشة الملائكة من تجسّد المسيح ابن الله الأزليّ، وتواضعِه على الأرض وبين النّاس، وسببُ دهشة الملائكة لأنّهم لم يكونوا يعرفون من قبلُ شيئاً عن تجسّد مخلّصنا وسيّدنا يسوع المسيح.

البيت السّابع عشر

في هذا البيت سلام من المؤمنين للعذراء مريم الّتي بولادتها

السّيّد المسيح ابن اللّه أدهشت عقول العلماء والفصحاء فصاروا في معناها كالسّمك لا صوتَ لهم ولا كلامَ.

وهتافات هذا البيت موجّهةٌ إلى طبقات العلماء والفصحاء من فلاسفة ورجال أشدّاء في المناظرات حتّى وإلى الأثنائيّين المشهورين بصفّ الكلام والخطابة والشّعر وما إلى ذلك.

وعلاوة على ذلك فإنّ والدة الإله تُدعى إناءَ الحكمة وخزانةَ عناية اللّه وسفينةَ الّذين يُؤثِرونَ الخلاص وميناءَ سباحي العمر.

البيت الثّامن عشر

فيه تسبيح إلى السّيّد المسيح الّذي من أجلنا تجسّد وأصبح إنساناً مثلنا وذلك ليخلّص العالم.

البيت التّاسع عشر

فيه اعتراف صارخ بأنّ والدة الإله عذراءٌ وسورٌ للعذارى وطاهرةٌ وقد سكن في أحشائها صانعُ السّماء والأرض ومربّيةٌ صالحةٌ للعذارى، ولهذا فإنّها تستحقّ كلّ تمجيد وتسبيح.

البيت العشرون

فيه تسبيح إلى الملك القدّوس من المؤمنين مع إقرارهم بأنّهم إذا قدّموا إليه ما يساوي الرّمل عدداً من التّسابيح فلا يقومون بحقّ ما أنعمه علينا من الخيرات.

البيت الحادي والعشرون

في هذا البيت يوجّه ناظمُ النّشيد الكلامَ إلى البتول القدّيسة داعياً إيّاها مصباحاً منيراً الّذي ينير عقولَ الجالين في ظلام المعصية لمعرفة الأسرار المقدّسة.

البيت الثّاني والعشرون

في هذا البيت تسبيح (هليلويا) إلى سيّدنا يسوع الّذي حضر بذاتِه إلى جميع البشر ليوفي ديونهم ويعيدَنا إلى الفردوس بعد أن كنّا في عالم الخطيئة، ولذا فإنّه مزّقَ الصّكّ المكتوبَ على حساب ديونِنا، وهكذا أصبحْنا أحراراً من كابوس المعصية والخطيئة ومستحقّينَ نعمتَه.

والنّعمة هنا جاءت بمعنى محبّة المسيح الّتي لا حدود لها لخلاص الإنسان من اللّعنة.

البيت الثّالث والعشرون

فيه مديحٌ وتسبيحٌ لوالدة الإله لأنّ الرّبّ حلّ في بطنها وقدّسَها ومجّدَها، ولذا فإنّها أصبحت مظلّةَ الإله الكلمة، وقدّيسةً أعظمَ من كلّ القدّيسين، وتابوتاً مُذهّباً بالرّوح، وكنزاً لحياة لاتفنى، وتاجاً مكرّماً للملوك، وفخراً موقّراً للكهنة، وبرجاً للكنيسة لا يتزعزع، وسوراً للمملكة لايُهدَم، وبها يقوم الظّفَرُ ويسقط الأعداء، وهي شفاءُ الجسد وخلاصُ النّفوس.

البيت الرّابع والعشرون

في هذا البيت وهو خاتمة نشيد الأكاثيسطوس تضرعاتٌ إلى البتول مريم الكلّيّة القداسة والطّهارة لكي تتقبّلَ صلواتِنا وتنقذَنا من أصناف الشّرور والشّدائد.

كيف يواجه الوالدون أزمة كِبر الأولاد؟

الجزء الثاني من مقال د. كوستي بندلي - العدد ٦ من مجلّة النّور سنة ١٩٨٧

٢- سُبُل تنقية الحبّ الوالديّ أم السّبيل إلى تحقيق ذلك فعليّاً، فأرى له وجوهاً عدّة:

أ- التّرحيب بتدرّج الأولاد نحو الاستقلال:

منها أن يتمرّس الأهل منذ بدء حياة أطفالهم على ملاحظة كلّ خطوة يقوم بها هؤلاء نحو الاستقلال وإبرازها وتشجيعها والاحتفال بها، من الخطوات الأولى الّتي يخطوها الطّفل بنفسه عندما يقدم على المشي، إلى مطلع الكلام، إلى الرّغبة في تناول الطّعام بنفسه (ولو بشيء من الرّعونة)، إلى إثبات قدراته العضليّة النّاشئة بشتّى الوسائل، من قفز وجري ورمي وما شابه ذلك (ولو كانت هذه الحيويّة الفيّاضة وغير المنضبطة بعد مزعجة بعض الشّيء)، إلى ذهابه إلى المدرسة وما يرافق ذلك من تعلّق بالمعلمين والرّفاق ينافس تعلّقه بالوالدين، إلى فترة المراهقة وما يقترن بها من انسلاخ عن البيت وتطلّع إلى الخارج وبدايات الاتّصال الحميم بالجنس الآخر...

فإذا ما رافق الوالدون هذه الخطوات الاستقلاليّة كلّها بالتّرحيب والتّشجيع، فإنّهما لا يوفّرون لولدهم أفضل شروط النّموّ السّليم وحسب، بل إنّهم، بالإضافة إلى ذلك، يربّون أنفسهم (أو إنّهم يتركون لولدهم المجال لكي يربّيهم، على الانسلاخ الضّروريّ (الّذي هو نوع من «فطام الوالدين» على حدّ تعبير المحلّلة النّفسيّة الدّكتورة فرنسوار دولتو) التّدريجيّ عن ولدهم، وتقبّل هذا الانسلاخ بفرح نابع من رؤيتهم لنموّه، وتطوير رعايتهم له بحيث تفسح المجال أكثر فأكثر لمبادرته الذّاتيّة.

هكذا يتهيّأون لتقبّل الانسلاخ الأكبر، بحيث يتسنّى لهم أن يروا فيه، عندما يحصل، لا كارثة تحلّ بعلاقتهم بولدهم وانهيارًا لهدف وجودهم، بل تحقيقًا لهذا الهدف وتتويجاً لتلك المسيرة الّتي كان هاجسهم فيها، لا أن يربطوا ولدهم بهم نهائيّاً، بل أن يساعدوه على الاعتماد تدريجيّاً على ذاته ومواجهة الحياة بنفس حرّة واثقة. يفرحون عند ذاك - رغم غصّة لا بدّ منها- لأنّهم حقّقوا أمنيتهم وبلغوا غاية عمليّة الإنجاب الطّويلة الّتي خاضوها، وأطلقوا في الحياة كائناً مكتمل الطّاقات، قادراً أن يقف على قدميه وأن يشقّ طريقه بنفسه وأن يواجه الصّعاب مرفوع الرّأس. فرحهم يكون شبيهاً إلى حدّ ما بفرح المعمدان الّذي كان همّه أن يمهّد الطّريق ليسوع، ولمّا انطلق يسوع هتف سابقه: «... هذا هو فرحي وقد اكتمل. ينبغي أن ينمو هو وأن أنقص أنا».

صحيح أنّ دورهم في حياة ولدهم يتناقص إلى حدّ التّواري، ولكنّهم يدركون حقّ الإدراك أنّ ذلك الاستقلال عينَه الّذي يتمتّع به ولدهم في واقعه الرّاهن إنّما هو عطيّة منهم إليه وأنّه ما كان له أن يواجه الحياة بثقة وانتعاش وإقدام لو لم يمنحوه أفضل ما لديهم من حبٍّ ورعاية. لا بل يفرحون بأنّ هذا الولد الّذي اعتبروه «فلذة كبدهم» ليس مجرّد نسخة عنهم بل كائناً جديدًا يتجدّدون هم به ويطلّون عبره على عالم الغد الّذي لولاه لامتنع عليهم حتّى في أحلامهم، كما يقول نبيّ جبران.

ثمّ إنّ الولد الّذي أوصله والداه إلى هذه المرحلة من النّضج والاستقلال بحبّهما المتقبّل المعطاء لابدّ له على الأرجح من أن يشعر حيالهما بعاطفة التّقدير والعرفان (لا مجرّد تمثيل العاطفة بموجب الدّور الّذي يفرضه عليه العرف والتّقاليد، بل العاطفة التّلقائيّة النّابعة من صميم من اختبر أنّه نال حبّاً أصيلاً وأنّ هذا الحبّ أعطاه لذاته)، فلا يصبح استقلاله عنهما حجّة

للتّباعد والاغتراب بل فرصة للانتقال من حبّ اتّسم بالتّبعيّة والحاجة إلى علاقة متجرّدة صافية فيها الكثير من التّعاطف والتّفاهم والاحترام. تلك هي اللّحظة المأثورة الّتي يتحدّث عنها الشّاعر الفرنسيّ Péguy حيث تكتمل الأبوّة والأمومة بصداقة تربط بين راشدَين وعلاقة حرّة شفافة بين النّدّ والنّدّ.

ب- حرص الوالدين على أن تكون لهم حياة خاصّة متمايزة:

ولكي يتحقّق هذا الموقف لدى الوالدين، ينبغي أن يحرصوا على أن تكون لهم حياتهم الخاصّة المتمايزة عن مهمّتهم الوالديّة وعن حياة أولادهم. وقد أصدُمُ الوالدين إذا قلت أنّه ينبغي لهم أن لايعيشوا لأولادهم. أوَ ليست تلك هي الصّورة المثاليّة الّتي تراود الوالدين والّتي يرسمها المجتمع لهم عبر ما تتناقله الألسنة جيلاً بعد جيل: أن يجعلوا من أولادهم غاية وجودهم ومحوره؟ ولكن حذارِ! إنّ هذا المثال خدّاع ولا بدّ أن يدفع الأهل والأولاد على حدّ سواء ثمن الانقياد إليه دون رويّة. ذلك أنّ من عاش لولده إنّما يكون لا شعوريّاً قد اندمج بولده إلى حدّ التّماهي به، وفي ذلك خطر كبير على تمايز الولد واستقلاله. قد نعيش لأولادنا، إنّما نطالبهم بالمقابل أن يتبنّوا أفكارنا ومواقفنا وأن يحقّقوا مهما يكن الأمر رغائبنا وأمانينا ومشاريعنا. وبذلك نلقي عبئاً ثقيلاً جدّاً على كواهلهم، عبئاً قد يسحقهم أحياناً.

كلاّ، لا ينبغي أن نحيا لأولادنا بل أن نرافقهم بكلّ رعاية وعطف وحنان دون أن نلغي بحال من الأحوال التّمايز الضّروريّ بيننا وبينهم، بين حياتنا وحياتهم، بين طريقنا وطريقهم. من هنا إنّه يحقّ للوالدين، لا بل يجب عليهم، أن تكون لهم حياتهم الخاصّة، من اهتمامات مهنيّة وثقافيّة واجتماعيّة وهوايات ونشاطات ترفيهيّة وما شابه ذلك....

ثمّ إنّه ينبغي للوالدَين أن يحرصا كلّ الحرص على علاقتهما الزّوجيّة وأن يسهرا على سلامتها وسعادتها ونموّها. فالعلاقة الزّوجيّة النّاجحة خير ضمانة لعلاقة متوازنة سليمة بين الوالدَين والأولاد. أمّا إذا أهمل الوالدان الاهتمام بعلاقتهما الزّوجيّة بحجّة الانصراف إلى رعاية الأولاد والتّفرّغ لهم، فلا فائدة تُرجى لهؤلاء من قِبَل هذا الموقف، بل بالعكس يكون وبالاً عليهم لأنّه يلقي على كواهلهم عبء الإحباط الّذي يعاني منه الوالدان من جرّاء تضعضع علاقتهما الزّوجيّة وما قد ينتج عن هذا الإحباط من مواقف استيلائيّة تعويضيّة.

ج- العون المستمدّ من الإيمان:

هناك أيضاً، بالنّسبة إلى الوالدين المؤمنين، عونٌ يستمدّونه من إيمانهم لتغليب عنصر المعطائيّة والتّقبّل في حبّهم الوالديّ على عنصر التّملك والاحتواء. هذا العون لا يأتي بنظري من مجرّد مبادئ دينيّة، قد يقتنع بها الذّهن ولكنّها تبقى قليلة التّأثير في الكيان، بل من إلفة حقيقيّة مع الله بحيث تصبح حياته مستقرّة فينا، فنحبّ عند ذاك أولادنا بالحبّ الّذي يحبّ هو به خلائقه، ذلك الحبّ الّذي يقترن فيه الحضور المحيي في صميم وجودها بالتّواري الّذي يسمح لهذا الوجود بأن يكون فعلاً ويتمايز عن وجود الخالق مع أنّه مستمَد كلّيّاً منه. هكذا يكتمل عطاؤنا لأولادنا بمروره بصليب التّواري والانسلاخ، ذلك الصّليب الّذي يشير سفر الرّؤيا إلى أنّه ماثل في وجود الله منذ إنشاء العالم. فنصبح هكذا، على منوال «واهب الحياة»، واهبي حياة لأولادنا، وترتدّ علينا الحياة الّتي نمنحها لهم فتثري وتنعش حياتنا.

هكذا نختبر في حياتنا الوالديّة السّرّ الفصحيّ، سرّ الصّليب والقيامة، القيامة عبر الصّليب، ونصبح بالتّالي أكثر تفهّماً وتحسّساً لهذا السّرّ وأكثر مشاركة فيه، ممّا ينعكس بدوره على

حياتنا الوالديّة فيزيدها أصالة ونقاء.

٤- كيف يواجه الأهل بمزيد من الصّفاء ترقّب زوالهم؟

إنّ الخطّ الّذي أشرنا إليه، ألا وهو خطّ تغليب العنصر المعطاء والمتقبّل في الحبّ الوالديّ، حريّ برأيي أن يساعد على مواجهة الوجه الثّاني من الأزمة الوالديّة، ذاك الّذي يعبّر عنه الشّقّ الثّاني من السّؤال الّذي نحن بصدده، ألا وهو شعور الوالدين، نتيجة كِبَر أولادهم واستغنائهم عنهم، بأنّهم قد كبروا من ناحيتهم وأصبحوا صائرين إلى الزّوال. هذا ما يتبيّن ممّا يلي حيث نذكر العوامل الّتي تسمح للوالدين بمواجهة ذلك الشّعور.

أ- يواجهونه بانتعاش حياتهم الشّخصيّة:

الشّعور باقتراب الزّوال أمرٌ لا بدّ منه في كلّ حياة بشريّة. ولكن ما يجعل من هذا الشّعور معاناة مضنية ومدمّرة، إنّما هو إحساس الإنسان بأنّه سائر إلى الموت دون أن تكون قد توفّرت له فرصة لكي يحيا بالحقيقة. من هنا إنّ الإنسان الّذي أُحبطت أمانيه ورغباته (وكثيراً ما يكون هذا الإحباط وليد عوامل نفسيّة قيّدت هذا الإنسان وحالت بينه وبين انطلاق طاقاته وتحقيق ما كان يتوق إليه في أعماقه)، هذا الإنسان يزداد شعوره بالزّوال حدّة ومأساويّة. أمّا ذاك الّذي أُتيح له أن يخوض غمار الحياة ويتذوّق عطاياها ويحقّق قسطاً معقولاً من وعودها وينعم بانسجام عميق بينه وبينها، فهذا يواجه المصير المحتوم بصفاء أكبر.

من هنا أنّ الوالدين، إذا ساروا في الخطّ الّذي أشرنا إليه، فإنّهم من جهة يسهرون على نجاح حياتهم الخاصّة وانتعاشها، دون أن يتّخذوا من تربية الأولاد ذريعة للتّنكّر لها وإهمالها، فيتاح لهم بالتّالي- رغم التّضحيات الّتي لابدّ أن يبذلوها لأولادهم (ولكنّهم يبذلونها بتلقائيّة وفرح فلا تتحوّل عبئاً على أولادهم ومدعاة لشعور هؤلاء بالذّنب)- أن يقابلوا اقتراب الموت بقلب مرتوٍ هادئ. ثمّ إنّ شعورهم بأنّهم نجحوا في مهمّتهم الوالديّة إذ أطلقوا في رحاب الدّنيا كائناً حرّاً طليقاً واثقاً، من شأنه أن يمنحهم قناعة وجدانيّة بأنّ حياتهم إنّما كان لها هدف ومعنى، وإنّها لم تنقضِ عبثاً، ممّا يساعد أيضاً على مواجهة الأجَل بنفسيّة القائل: «الآن أطلق عبدك أيّها السّيّد بسلام...».

ب- يواجهونه برؤية الحياة المتوثّبة المنتقلة منهم إلى أولادهم:

أضف إلى ذلك أنّ مثل هؤلاء الوالدين يشعرون بأنّ تلك الحياة الّتي تتأجّج في ولدهم، ولسوف تبقى متأجّجة متوثّبة من بعدهم، إنّما هي إلى حدّ ما من صنعهم، من صنع محبّتهم الّتي لم تكن آسرة بل محرّرة. وإنّها، بالتّالي، إنّما هي، بصورة ما، حياتهم وقد اتّخذَتْ وجهاً جديداً، حياتهم وقد أمدّوا ولدهم بها مستودِعينه أفضل ما كان فيهم من تَوق إلى الحياة الحرّة الكريمة. وأنّهم بالتّالي سيتَحَدّوْنَ الموت من خلاله مستمّرين فيه عبر تلك الحياة الّتي نقلوها إليه جيّاشة، فيّاضة، وعبر الذّكر المحبّ الّذي تركوه فيه.

ج- يواجهونه بتجارب خبرتهم الوالديّة مع الرّجاء الفصحيّ:

أخيراً فإنّ هؤلاء الوالدين، من جرّاء اقتران خبرة الانسلاخ في حياتهم الوالديّة بخبرة الفرح، فرح إنجاب إنسان جديد مكتمل الحيويّة والطّاقات، وإطلاقه حرّاً طليقاً في رحاب عالم الغد، قلت إنّ هؤلاء الوالدين، إذا كانوا مؤمنين، معدّين، من جرّاء الخبرة الّتي ذكرتُ، إلى تحسّس أكبر وتجاوب أعمق مع مضمون إيمانهم القائل بأنّ الانسلاخ الأعظم والأخير، الّذي هو الموت، إنّما هو الوجه الآخر لولادة الحياة الجديدة فينا، المخاض الأخير الّذي منه ننفذ إلى عالم النّور الّذي لايغيب.

١٩٨٧/٦/١٢

نقلا عن موقع حركة الشبيبة الارثوذكسية

رسالة إلى والديّ

فـادي عـدره

أبي وأمي الحبيبين،

أكتب لكما تساؤلات جالت في ذهني، لا جواب لها.

منذ دخولي في التّعليم المسيحيّ «مدارس الأحد الأرثوذكسيّة» وأنا مستغرب ما يجري من حولي، وخاصةً عندما قالوا لي أنّ الرّبّ يسوع المسيح في قلب كلّ شخص، وفي كلّ بيت، وفي كلّ مكان. قالوا لي أن الرّبّ يسوع يسكن في قلوبنا، وهي منزلٌ له، هي مذودُه، فيها يسكن ليُنعمَ علينا بنعمه، ويخلّصَنا، ويُقيمَنا من الخطيئة، ويرفعَنا معه إلى السّموات. كيف ذلك؟ ومن هذا الرّبّ يسوع؟ لماذا تجاهلتموه؟ لماذالم تعرّفوني عليه؟ أين هو يسوع في بيتنا؟ أنا لا أجد له مكاناً ليسندَ عليه رأسه، كلّ يوم شجار واهتمام بأمور دنيويّة، كلّ يوم تتّكلون على أنفسكم ولا تتّكلون على الرّبّ. كلّ يوم تسهرون والكؤوس بين أيديكم، بينما غيركم يصلّون ليخلّصَهُمُ اللّهُ هم وأولادهم، ويقوّيهم، ويوفّقهم. كلّ يوم تشتمون وتكفرون وتُهينون، بينما غيرُكم يسبّحون ويشكرون الرّبّ على عطاياه، رغم مآسيهم.

تعلّمت في مدارس الأحد أيضا المحبّةَ، التّعاونَ، العملَ باسم الرّبّ يسوع، ، في الكنيسة وجدت اللّه، تكلّمت معه، وهو أيضا كلّمني، شاركته ذبيحتَه، سكن فيّ... كلُّ هذه الأمور لا أجدها في منزلنا. فأين يسوع في بيتنا؟ إنّه لَعجيبٌ بعد هذه السّنين أن أعرفَ يسوعَ خارج المنزل، أعرفَه من مرشدي. هل فكَرتم يوماً ما بالدّينونة الّتي تحملونها؟ هل فكرتم كيف تصونون الصّليب الّذي أعطاكم إياه الرّبّ، هل جلستم وبحثتم في نفوسكم، من أين لكم هذه الحياة، وهذا الاستقرار؟ إنّها من اللّه. هل فكرتم بي؟ ماذا كان يجول في أذهانكم عندما جئت إلى عالمكم؟ أَكنت فقط طفلاً يملأ لكم دنيتكم؟ يُسعدكم؟ عندما يكبر سيسندكم؟ لا يهمّكم ماذا سيصبح في المستقبل؟ لا يهمّكم خلاصه؟ يريد الذّهاب إلى الكنيسة؟ هو حرّ، بالعكس، فهو يُريحنا... هل تفتخرون بابنكم أنّه يذهب إلى الكنيسة؟ هل تقولون أنّه تربيتكم؟ هل تُشعلون له شمعة أو قنديلاً أمام أيقونة؟ طبعاً لا.. أتدرون لماذا؟ لأنّكم أخرجتم المسيح من قلوبكم، أخرجتم المحبّة... فمحبّةُ الأهل يا أبي ويا أمّي ليست في إحضار المال، وتحضير الطّعام، وجلب الهدايا فقط، بل المحبّة تكمن في تضحياتكم لي، المحبّة تكمن في إيصالي إلى طريق الخلاص، وليس إلى الملذّات الدّنيويّة، المحبّة يا أمّي هي أن تقرأي لي مقطعاً من الكتاب المقدّس يُخبرني عن يسوع ومايريده منّي، المحبّة أن تعلّموني الصّلاةَ قبل الطّعام وبعده وقبل النّوم و...إلخ، المحبّة الكبرى أن تشاركوني الفرح السّماويّ، أن تشاركوني القدّاس الإلهيّ، فكم يحزنني أن أذهبَ إلى الكنيسة وأجدَ أصدقائي مع أهلهم، يصلّون سويّة، ويتناولون جسد السّيّد ودمَه سويّة، ويشتركون بالفرح السّماويّ سويّة، وأنتم في المنزل، نيام.

الأولاد ليسوا جسداً فقط، بل هم حياة... اللّه قال: «**دعوا الأولادَ يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السّموات**». أرجو المساعدة.

ابنُكم

سرّ المعموديّة

الأرشمندريت يوسف يعقوب

مقدمة

الأسرار كما يقول لنا نقولا كاباسيلاس: هي بمثابة أبواب السّماء الّتي يُدخل المسيح المؤمنين إلى ملكوته، إنّها أبواب الفردوس الّتي أقفلت في وجه آدم وقد فتحها المسيح من جديد أمامنا لتكون لنا الحياة (يو١٠:١٠) والأسرار باب مفتوح به ندخل إلى حضرة السّيّد، بهذا المعنى هي امتداد المسيح في التّاريخ الإنسانيّ بحال غير منظورة أو «سرّيّة» بقوّة الرّوح القدس. إنّ الماء المقدّس في المعمودية والخبز والخمر المقدّسين في سرّ الشّكر، تُمثّل كامل الخليقة. لكنّها تمثّلها كما يتكّون في النّهاية، أي عندما تُتمّم في الله، ويملأ الله كلّ شيء بنفسه. وهذه النّهاية هي ما يُعلن لنا ويُستبق ويصير حقيقةً آنية بواسطة السرّ. وبهذا المعنى فإن كلّ سرٍّ يجعلنا نعبُر إلى ملكوت الله. ولمّا كانت الكنيسة نفسها هي سرّ العبور هذا، فهي الّتي تأخذنا في كلّ سرّ من أسرارها إلى هناك، أي إلى ملكوت الله.

السّرّ هو ما يخفى عن غير المؤمن ولكنّه يدرك في شركة الإيمان. والسّرّ هو في آن معاً حضور الرّبّ في الكنيسة المجتمعة وكلّ سرّ كما يؤكّد لنا القدّيس كيرلس الأورشليميّ «هو حضور الرّوح المعزّي غير المنظور من خلال ماهو منظور فيحوّل مياه المعموديّة إلى وشاح للمسيح الّذي يلبسه كلّ منّا».

في الكنيسة الأولى كانت النّعمة تعني، قبل كلّ شيء، انتصار الذّات على كلّ انقسام: «شكل» و «جوهر»، «روح» و «مادّة»، «رمز» و «حقيقة». وهذا الانتصار يظهر بوضوح في السّرّ وفي كامل حياة الكنيسة، لأنّه في النّهاية انتصار المسيح نفسه. فكلّ «أشكال» هذا العالم يمكنها، بالمسيح وفيه، إن تنقل وتحقّق فعلاً ما «تصوّره»: أي ظهور ملكوت الله في «هذا العالم» وتجلّي «الحياة الجديدة». ونعمة المعموديّة هي هذا الحدث بالذّات: إنسان يموت ثمّ يقوم مجدّداً على «شبه» و «مثال» موت المسيح وقيامته. فالمسيح لم يأتِ إلى العالم حتّى نقوم نحن بأسرار (سارية المفعول)، ولكنّه أعطانا أسراراً سارية المفعول حتّى (نحقّق) أنفسنا، بوصفنا أبناءً وشهوداً لملكوته.

معنى كلمة معموديّة

كلمة معموديّة في اليونانيّ هي Το βαπσμοτ من فعل βαπτιζω الّذي يعني أن أكون كليّاً في الماء والّذي ترجم إلى العربيّة بمعنى أعمّد أو أصطبغ وقد استخدمت لتدلّ على الصّبغة الّتي وردت في (مر١٠:٣٨-٣٩) و (لو١٢:٥٠) وبهذا ترى أنّ كلمة معموديّة تدلّ على اصطباغ المعمّد في الماء أي إنزاله ومن ثمّ إخراجه أي الموت والقيامة مع المسيح (رو٦:٣).

مؤسس السّرّ

إنّ مؤسّس سرّ المعموديّة هو الرّبّ يسوع المسيح عندما أرسل تلاميذه ليتلمذوا ويعمّدوا جميع الأمم «**فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس**» (متّى٢٨:١٩). إنّ الرّبّ يسوع فتح باب المعموديّة لجميع البشر وهي شرط للحصول على الخلاص الأبديّ «**مَن آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدن**» (مر١٦:١٦). وقام الرّسل بتعميد كلّ من أعلن إيمانه بالرّبّ سواء كان يهوديّاً أو غير يهوديّ، فالرّسول فيلبّس عمّد الخصي (أع٨:٣٨)، وقام بطرس بتعميد قائد المائة كرنيليوس مع عائلته (أع١٠: ١-٤٨)، أمّا بولس الرّسول فعمّد ليديا (أع١٦:١٥)، وحافظَ السّجن مع عائلته

(أع١٦: ٣٣) وغيرهم.

المعموديّة في التّقليد:

أ- في العهد القديم:

إنّ القدّيس أثناسيوس «يعتبر جميع الأسفار المقدّسة إنّما تقدّم لنا حلقة متكاملة من استعلانات اللّه الآب بواسطة ظهوراتٍ أو إعلان الابن الّتي تحمل كلّ مسرّة الآب وإعلاناته ثمّ تجسّده». كما يقول القدّيس كيرلس الإسكندريّ بأنّ «العهد القديم ظلال وهو تحضير للّذي سيتمّ في العهد الجديد، فهو يحضّر ويمهّد الطّريق ويعتمد على الرّسالة، أمّا العهد الجديد يعتمد على الرّوح، ولذلك علينا أن نقبل الإثنين الأوّل كتحضير والثّاني كإنجاز أو تكميل أو إعلان لكلّ شيء». فمن خلال العهد القديم ترى وجود إشارات مختلفة للمعموديّة ومن هذه الإشارات:

١- حادثة الطّوفان: يقول بطرس الرّسول في رسالته الأولى «إذ عصت قديماً حين كانت أناة اللّه تنتظر (مرّة في أيّام نوح إذ كان الفلك يُبنى فيه خلص قليلون أي ثماني أنفس بالماء. الّذي مثاله يخلّصنا نحن الآن أي المعموديّة. لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن اللّه بقيامته يسوع المسيح» (١بط٣: ٢٠-٢١). ففي المعموديّة الخلاص بالماء كما حدث في الفلك مع الّذين خلصوا من موت الطّوفان بفلك نوح (تك٦-٨).

٢- الختان: «**وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم**)**خطايا**(**البشرية بختان المسيح. مدفونين معه في المعموديّة الّتي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل اللّه الّذي أقامه من الأموات**» (كول٢: ١١-١٢). ففي العهد القديم قال الرّبّ لموسى بأن يختن كلّ مولود في اليوم الثّامن (لا١٢: ١-٣).

٣- عبور البحر الأحمر: حدث العبور (خر١٤: ١٥-٢٩) هو خلاص الشّعب العبرانيّ من عبوديّة فرعون، وهنا يرمز إلى الخلاص. كما يقول القدّيس بولس الرّسول «**وجميعهم اعتمدوا لموسى في السّحابة وفي البحر**» (١كور ١٠: ٢).

ب- المعموديّة في العهد الجديد:

١- معموديّة يوحنّا المعمدان: كان يوحنّا المعمدان يعمّد في بريّة اليهوديّة من أجل التّوبة قائلاً «**توبوا لأنّه قد اقترب ملكوت السّماوات**» (متى٣: ٢). وكان يأتي إليه من يطلب معموديّته معترفين بخطاياهم (متى٣: ٦) فمعموديّة يوحنّا هي رسماً لمعموديّة المسيح، وكانت تهيّء اليهود بنوع خصوصيّ لقبول المسيح وملكوته، وكما أنّها للتّوبة فقط كما قال عنها بطرس الرّسول «... فتذكّرت كلام الرّبّ كيف قال إنّ يوحنّا عمّد بماء وأمّا أنتم فستعمّدون بالرّوح القدس» (أع١١: ١٦). وبالتّالي فهي تختلف عن المعموديّة الّتي أوصى بها الرّبّ يسوع المسيح تلاميذه بها.

٢- معموديّة الرّسل قبل قيامة الرّبّ: «**فلمّا علم الرّبّ إنّ الفرّيسيّين سمعوا أنّ يسوع يصير ويعمّد تلاميذ أكثر من يوحنّا. مع أنّ يسوع نفسه لم يكن يعمّد بل تلاميذه**» (يو٤: ١-٢).

إنّ هذه المعموديّة هي شبيهة بمعموديّة يوحنّا المعمدان، ولا تحمل من المعاني الّتي ستحويها المعموديّة بعد قيامة المسيح، وإرسال الرّوح القدس.

٣- معموديّة الرّسل بعد قيامة الرّبّ: بعد تأسيس المسيح لهذا السّرّ قام الرّسل بممارسته، ففي اليوم الخمسين بعد أن وقف بطرس الرّسول رافعاً صوته بكلمة الإيمان قائلاً «**توبوا وليعتمد كلّ واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطيّة الرّوح القدس**» (أع ٢: ٣٨). فالمعموديّة لازمة لخلاص الإنسان، فبها تُغفر خطاياه، وتمهيد لقبول الرّوح القدس بالميرون.

ففي يوم الخمسين تمّ عماد ثلاثة آلاف نفس. أمّا الخصي

الحبشي فبعد أن آمن على يد فيليبّس طلب المعموديّة، وعمّده فيلبّس الشّمّاس (أع٨:٣٦). وسجّان فيليبّي الّذي آمن على يدي بولس وسيلا (أع ١٦:٣٣). وكرنيليوس الّذي ظهر له الملاك والّذي قبل كلمة الحياة، فلم يمنع بطرس المعموديّة عنه وعائلته (أع١٠: ٤٧-٤٩). فكما يظهر أنّ الرّسل مارسوا السّرّ بعد قيامة الرّبّ بحسب وصيّته.

المعموديّة في الكنيسة الأرثوذكسيّة:

أهمّيّة المعموديّة للخلاص:

تكمن أهمّيّة المعموديّة من خلال قول الرّبّ لنيقوديموس «الحقّ الحقّ أقول لك إن كان أحد لايولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت اللّه» (يو٣:٣). ومعنى هذه الولادة «**أجاب يسوع الحقّ الحقّ أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والرّوح لا يقدر أن يدخل ملكوت اللّه**» (يو٣:٥). فهذه الآية تقول صراحة بدون المعموديّة لايستطيع الإنسان أن يدخل إلى الملكوت ولا أن يعاينه، وبهذه يكون الخلاص عن طريق المعموديّة الّتي يمهّد لها الإيمان لهذا قال الرّبّ «**من آمن واعتمد خلص**» (مر١٦:١٦). وكذلك «**فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به**» (متى٢٨: ١٩-٢٠). فللحصول على الخلاص لابدّ من الإيمان الّذي يأتي بالتّلمذة، والمعموديّة هي الباب المباشر، وبالأعمال الصّالحة يحفظ الوصايا. ويؤكّد بولس الرّسول على أهمّيّة المعموديّة في الخلاص بقوله لتلميذه تيطس «**لا بأعمال في برّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثّاني وتجديد الرّوح القدس**» (تي٣:٥).

يقول الكتاب «**أجرة الخطيئة هي موت**» (روم٦:٢٣) فلابدّ من الموت وإنّ طريق الخلاص يبدأ بالموت. لقد بدأ الخلاص بتجسّد الكلمة وحياة المسيح على الأرض وتكلّل بموت المسيح

على الصّليب حيث دفع ثمن الخطيئة. واشترانا بدمه، ليصل الخلاص إلينا بالموت، فالمسيح أعطى بموته الخلاص، ويكون لنا نصيب في هذا الخلاص بالاشتراك مع المسيح في موته كما يقول بولس الرّسول: «**لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبّهاً بموته**» (فيل٣:١٠).

فنحن نترك في موت المسيح عن طريق المعموديّة «**أم تجهلون أنّنا كلّ من اعتمد بيسوع المسيح اعتمدنا بموته فدفنّا معه بالمعموديّة للموت... لأنّه إن كنّا قد صرنا متّحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته... فإن كنّا قد متنا مع المسيح، نؤمن أنّنا سنحيا أيضاً معه**» (رو٦: ٣-٨).

المعموديّة إذا لازمه للخلاص، لأنّها شركة في موت المسيح ولأنّها إيمان بالموت كوسيلة للحياة، واعتراف بأنّ أجرة الخطيئة هي موت. فإنّ الّذين يقولون أنّ الخلاص يتمّ بمجرّد الإيمان وحده،

بدون معموديّة، لم يفهموا ما هو الإيمان بعد، فالإيمان هو أن تؤمن أنّ الخطيئة أُجرتها الموت وتؤمن أنّه لنحيا أيضاً معه، لايتمّ هذا إلاّ عن طريق باب الدّخول وهو المعموديّة.

ويقول القدّيس باسيليوس: «لكلّ غرض وقتٌ يلائمه: للنّوم وقتٌ وللسّهر وقتٌ، للحرب وقتٌ وللسّلام وقتٌ، أمّا وقت العماد فيستنفد حياة الإنسان كلّها. وكما أنّ الجسد لايحيا بدون تنفّس، كذلك النّفس لن تستمرّ بدون معرفة خالقها. فجهل الله هو موت لها. والّذي لم يعتمد لم يستنر. فبدون النّور لاتستطيع العين أن تتفحّص مايهمّها، ولاالنّفس أن تتأمّل في الله».

نتائج المعموديّة

١- **يتمّ بها الخلاص:** «**من آمن واعتمد خلص**» (مر١٦:١٦). المعموديّة مشروطة بجوار الإيمان، وقال القدّيس بولس الرّسول «**لا بأعمالٍ في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثّاني وتجديد الرّوح القدس**» (تي٣:٥).

٢- **ينال بها الميلاد الثّاني من الماء والرّوح:** وذلك بحسب قول الرّبّ لنيقوديموس «**إن كان أحد لايولد من فوق لايقدر أن يرى ملكوت الله... إن كان أحد لايولد من الماء والرّوح لايقدر أن يدخل ملكوت الله**» (يو٣: ٣-٥). فالمعموديّة إذاً فتحت ثغرة لله في الكيان الإنسانيّ الّذي كان مخلوقاً على صورة الله، وشوّه هذه الصّورة بالفساد، بالخطيئة. فجاء الله ومحا الفساد عن الصّورة الإنسانيّة بواسطة المعموديّة.

لكنّ صورة الله فينا شيء يجب أن يتحرّك لينمو حتّى يصبح على مثال الله. فغاية المعموديّة في النّهاية أن نصبح نحن إلهيّين. فبالمعموديّة يخلق خلقة جديدة ويصبح قادراً على أن يدخل الله إليه لأنّ الله أدركه، الله هو الّذي أدركه.

الله وصل إلينا بالمعموديّة، ولذلك يعطي الإنسان اسمه للمرّة الأولى في المعموديّة، هذه هي العادة المسيحيّة القديمة، والعرّاب هو الّذي يكشف الاسم يوم العماد. معنى ذلك أنّه يكشف الدّعوة. ويسمّيه على اسم قدّيس حتّى يضعه في منهج هذا القدّيس ويضع أمامه فكرة الدّعوة الّتي دعينا عليها ألا وهي دعوة القداسة.

عند ذاك يعاهدنا الله على أن يكون هو لنا، أي أنّه يدخلنا في عهد جديد بدم يسوع. فكلّ من ولد من الماء والرّوح يكون قد ولد من فوق أي قد ولد من الرّوح فهذا هو الميلاد الثّاني.

٣- **تغسل الخطايا وتغفرها:** قال حنانيا الدّمشقي لشاول «**قم واعتمد واغسل خطاياك**» (أع ٢٢:١٦). كما أنّ بولس الرّسول يقول «**لكن اغتسلتم بل تقدّستم بل تبرّرتم باسم الرّبّ يسوع وبروح إلهنا**». (١كو٦:١١) وذلك لأنّهم اعتمدوا باسم يسوع المسيح فنالوا المغفرة. وبالمعموديّة يتمّ غفران الخطايا كما قال بطرس الرّسول في يوم الخمسين «**توبوا وليعتمد كلّ واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطيّة الرّوح القدس**» (أع٢:٣٨). ولكنّني أريد أن أنبّه إلى أنّ الخطيئة الجدّيّة ليست خطيئة موروثة، أي ليس أنّ واحداً أخطأ، وهو آدم ثمّ تتناسل إلينا هذه الخطيئة. ولكنّ القول الكنسيّ الشّرقيّ هو أنّ في خطيئة الأوّل فسدت الطّبيعة وجنحت إلى الشّر وماتت الطّبيعة البشريّة. فما نرثه إذاً هو الموت أي فساد الطّبيعة الّذي يقود إلى الموت. ليس لأنّهم لم يخطئوا ورثوا الموت ولكنّهم أخطأوا وورثوا الموت.

كلّ واحد يخطئ وبسبب خطيئته يرث الموت. ولكن يرث طبيعة ملوّثة. الشّيء المهمّ إذاً هو أنّ المعموديّة لم تأتِ لتخلّصنا من خطيئة نحن غير مسؤولين عنها ولكن من الفساد، من فساد الطّبيعة الّتي تلوّثت وورثناها ضعيفة حتّى لا ينتج الفساد خطيئة. إذاً تعيد لنا المعموديّة الحياة الّتي فقدناها وكلّما دخلت إلينا الحياة، حياة الله، كلّما صرنا قادرين على أن نتغلّب على الفساد.

٤- الموت والقيامة مع المسيح: يقول بولس الرّسول «**أم تجهلون أنّنا كلّ من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته. فدفنّا معه بالمعموديّة للموت حتّى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة**» (روم٦: ٣-٤). ويقول أيضاً «**فإن كنّا قد متنا مع المسيح نؤمن أنّنا سنحيا أيضاً معه**» (روم٦:٨). اتّخذ ابن اللّه الموتَ على نفسه إذاً لكي يعيد الحياة إلينا نحن. إذاً هذه النّعمة هي نعمة الفداء بمعناه إنّها ذاتها تعطى للمعمّد كما أن يسوع قد مات هكذا يموت المؤمن به في جرن المعموديّة وكما أنّه قام بعد ثلاثة أيّام هكذا المؤمن به يحيا للّه بجرن المعموديّة. هكذا نشبه المسيح، يُصلب إنساننا العتيق أي الإنسان الخاضع للشّهوات والغرور، لعشق العالم لكي يبطل جسد الخطيئة كي لانعود ونستعبد للخطيئة. بالمعموديّة يُصلب إنساننا العتيق هذا الّذي صرناه بالخطيئة حتّى نطرح جسد الخطيئة خارج كياننا كي لانبقى عبيداً لها. فالمعموديّة لازمة للخلاص لأنّها شركة في موت المسيح، ولأنّها إيمان بالموت كوسيلة الحياة، واعتراف بأن أجرة الخطيئة هي موت.

٥- في المعموديّة نلبس المسيح: «**لأنّ كلّكم الّذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح**» (غلا٣:٢٧)، أي نلبس الخلاص الّذي وهبه لنا في المعموديّة بدمه.

٦- في المعموديّة انضمام لعضويّة الكنيسة: إنّ من رموز المعموديّة الختان ويقول بولس الرّسول «**وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيدٍ بخلع جسم)خطايا(البشرية بختان المسيح، مدفونين معه في المعموديّة الّتي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل اللّه الّذي أقامه من الأموات**» (كول٢: ١١-١٢). فبالختان يقطع جزء من الجسد فيموت هذا الجزء، إشارة إلى الموت الكامل في المعموديّة، والختان علامة لاتُمحى وهكذا المعموديّة. وكما أنّ المختون يصبح عضواً في شعب اللّه بحسب النّاموس فهكذا المعمّد في الكنيسة هو عضواً في جسد المسيح.

٧- بالمعموديّة نصبح أبناء اله وأعضاء في جسد المسيح: «**لأنّنا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد**» (١كو١٢: ١٣). وأيضاً «**لأنّكم جميعاً أبناء اللّه بالإيمان بالمسيح يسوع**» (غلا٣:٢٦). بالمعموديّة تبنّانا اللّه، أي أمر أن نكون أبناءه واعتبرنا هكذا ونقلنا من العبوديّة إلى البنوّة، فلم تعد علاقتنا معه علاقة خارجيّة بل داخليّة. بالمعموديّة دخلنا في صميم النّعمة، دخلنا إلى الملكوت وحصلنا على طعم الحياة الأبديّة، على النّور، على الحواس الدّاخليّة الّتي تؤهّلنا أن نعاين نور اللّه.

الخاتمة

المعموديّة دعوة من اللّه ونقل للفعل الإلهيّ. فالمهمّ بعد أن استلمنا هذه الصّبغة أن لا نخسرها. اصطبغ الإنسان بدم يسوع بالمعموديّة وعين له، افرز له.

يبدو لي أنّ سرّ المعموديّة لايعني لنا شيئاً إذا لم يكن لنا سرّ الموت والحياة بآن. ويقول هذا السّرّ أنّ الحياة ناتجة من موت وأنّ القيامة لاحقة للصّليب وللدّفن. هل نحن معمّدون بالحقيقة أم فقط بالماء، أي هل صرنا أبناء بالحقيقة أم تبنّانا اللّه فقط؟

عندما نتصرّف بكياننا كأبناء للّه عارفين أنّ اللّه سيّد هذا الكيان نكون قد اعتمدنا بالرّوح وليس فقط بالماء. إذا سعينا إلى اللّه بانقطاعنا عن كلّ ما هو ليس له عندئذٍ تكون المعموديّة مستمرّة معنا إلى الأبد.

النّور في الأرثوذكسيّة

الأب بولس طرزي

حديث أعطي في بيت حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة في ميناء طرابلس / لبنان في ١٩٨٨/٣/٥

وهو منقول عن آلة تسجيل وتمّ نشره في مجلّة النّور في السّنة نفسها

بادئ ذي بدء، أطلب منكم التّفهّم والصّبر، حتّى إذا خُضْنا في نَواحٍ تقنيّة، تبذلوا جهداً فنتوصّل إلى أن نفهم الأمور حسبما يطرحها علينا الكتاب المقدّس والتّقليد. ففي الحياة الرّوحيّة وفي المعرفة اللاّهوتيّة جهد ذهنيّ لابدّ منه. وأنتم تعرفون أنّ الكنيسة لا تسمّي قدّيسيها كلّهم آباء. فالقدّيسون الّذين عبّروا عن المفهوم اللاّهوتيّ والحياة الرّوحيّة بالعقل والكلمة، هؤلاء فقط سمّوا آباء الكنيسة. لأنّ الكلمة، في آخر المطاف، هي الّتي تُحمَل عبر الأجيال وتغذّي الأجيال الصّاعدة. فنحن، مثلاً، لا نعرف عن أب من الآباء إلاّ ما وَصَلنا من كتاباتٍ له أو عنه. وأوّل الكتابات الّتي وصلتنا، وأهمّها، هي الكتب المقدّسة لأنّها هي أصل الإعلان الإلهيّ، فمن المهمّ الابتداء بها.

الحديث عن النّور في الكتاب المقدّس ليس كثيراً، سواءٌ في العهدين القديم والجديد. وأعتقد أنّ أهمّ النّصوص الّتي تتناول هذا الموضوع هو النّصّ الوارد في الإصحاح الأوّل من السّفر الأوّل في الكتاب المقدّس، أي سفر التّكوين. ففي هذا الإصحاح نقرأ أنّ «في البدء خلق الله السّموات والأرض، وكانت الأرض خاويةً خالية وعلى وجه الغمر ظلام وروحُ الله يرفرف على وجه المياه. وقال الله: «ليكن نور»، فكان نور. ورأى الله أنّ النّور حسن. وفَصَل الله بين النّور والظّلام وسمّى الله النّورَ نهاراً، والظّلامُ سمّاه ليلاً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ: يومٌ أوّل». إنّ أهمّيّة النّور ناتجة عن أهمّيّة الظّلمة، وليس العكس. فالظّلام عند الشّعوب القديمة – وإلى الآن في القرن العشرين – مرتبط دائماً في الأذهان بعدم الحياة، بالسّكوت وحتّى بالخوف. والإنسان، في اللّيل، يحسّ بالخوف وعدم الاطمئنان. وبهذا المعنى، الإنسان هو، طبيعيّاً، كائن نهاريّ. فهو ينام، عادةً، في اللّيل. وهذا الوضع الطّبيعيّ الّذي عاشه الإنسان – ونعيشه نحن أيضاً في القرن العشرين – جعل أنّ الظّلام، في المفهوم الدّينيّ للشّعوب القديمة، مربوط بوجه ثانٍ يعبّر هو الآخر عن عدم الحياة وضدّها، وهذا الوجه الثّاني هو الغمر، المياه. وتعرفون، من قراءتكم الكتاب المقدّس، أنّ المياه كانت مخيفةً بكلّ معنى الكلمة. وهي كانت دائماً، في التّقاليد القديمة، الفينيقيّة والكنعانيّة والأوغاريتيّة، وفي عقليّة العهد القديم، ضدّ الإله إذا ما أراد أن يبني مدينته. نقرأ في المزمور الثّالث والتّسعين: «الرّبُّ قد ملك والجمال لَبِسَ الرّبُّ القوّة وتمنطق بها. وثبّت المسكونة فلن تتزعزع». والصّورة هنا هي أنّ الله هو كملك جالس على كرسيّ ملوكيّته، والمياه تحت مدينته تريد تحطيمها. لذلك نقرأ في تتمّة المزمور: «رفعت الأنهار يا ربّ، رفعت الأنهار صوتها، رفعت الأنهار عجيجها» حتّى تدّمر الله، ولكن صوت الرّبّ كان أقوى من المياه. وتعرفون أيضا صورة الطّوفان، وفيها أنّ المياه لا تكون معطية للحياة إلاّ عندما يضبطها الله. لذلك صارت صورة الطّوفان في كنيستنا صورةً للمعموديّة. فالإنسان يدخل، بالمعموديّة، في الموت، في الدّمار، ويخرج منهما بقوّة الله. وبسبب من ذلك تتبارك المياه. ولكن، ليس للمياه، أصلاً، فكرة البركة. لماذا؟ قد يكون السّبب بسيطاً وهو أنّ الإنسان ليس سمكة. فهو يعيش على الأرض، وبالتّالي لا يقدر أن يعيش في المياه. هو يعيش في النّهار، وبالتّالي لا يقدر أن يعيش في الظّلمة. فالشّيء المنطقيّ والبديهيّ هو أنّ

الإنسان، حتّى في تعبيره الدّينيّ، يجعل الغمر والظّلمة دائماً في مفهوم سلبيّ، ويجعل الأرض والنّهار والبناء والمدينة والنّور في مفهوم إيجابيّ.

المهمّ في النّصّ الّذي ذكرته لكم من سفر التّكوين، أنّ الله، في البدء، ما كان يتعامل مع النّور، لأنّه، بحسب النّصّ، لم يكن نورٌ في البدء بل الغمر والظّلام، من جهة، والله من جهة أخرى. وهذا المفهوم مهمّ جدّاً بالنّسبة لنا ولإيماننا. فنحن، في كثير من الأوقات، وبتأثير الفلسفة اليونانيّة إلى القرن التّاسع عشر، وخاصّة بسبب التّيّار الإيجابيّ Positivisme، نفكّر في أنّ خلق الله للعالم كان أمراً بسيطاً، فنتصوّر أنّه من جهة كان هناك الله، ومن جهة أخرى لم يكن هناك شيء، ثمّ صار هناك شيء. ومع الأسف، فإنّ هذا التّصوّر خلق في مفهومنا للإيمان، على المستوى اليوميّ، ضرراً كبيراً بمعنى أنّ الله – وبحسب هذا التّصوّر – هو، بقدر ما نبذل جهداً لنفهمه ونتقرّب إليه، بعيدٌ عنا، فهو الخالق، القدير، الّذي لا صلة له بنا. ولكنّ التّعبير الكتابيّ يمنع هذا التّصوّر. يشدّد التّعبير الكتابيّ دائماً على أنّ المسكونة الّتي يخلقها الله قائمة لأنّ الرّبّ هو مُقيمها وليس أقامها. من هنا أنّ فكرة العدوّ الّذي يريد أن يخرّب الخليقة هي فكرة مطروحة دائماً لنا على أنّها قوّة حقيقيّة، سلبيّة، تريد أن تحطّم الكيان، وليست هي شيئاً محيّراً، حياديّاً. في الكتاب المقدّس، العدم والغمر والظّلام تتحدّى دائماً المسكونة والنّور وتجرّب أن تقتلع هذه المسكونة من كيانها. وفي دستور إيماننا المسيحيّ، وحتّى في تعبيره اليونانيّ، كلمة مترجمة جيّداً إلى العربيّة وهي الضّابط الكلّ Pantoerator. هذه الكلمة تعكس مفهوم الكتاب المقدّس وهو أنّ الله هو الخالق ليس بمعنى أنّه خلق المسكونة وحسب، وأنّ هذه المسكونة قائمة بحدّ ذاتها بالاستقلال عن الله، ولكن الله هو الخالق بمعنى أنّه يضبط دائماً المسكونة بيده. لذلك كانت الشّعوب القديمة تخاف من أن ينام الله، ففي هذا خراب كلّ شيء. فالأمور ليست قائمة بحدّ ذاتها. وهذا وارد في مزمور الغروب الّذي نتلوه كلّ يوم في صلاتنا. يقول داود النّبيّ لله: «**تحجب وجهك فيفزعون. تقبض أرواحهم فيموتون وإلى ترابهم يعودون. ترسل روحك فيخلقون وتجدّد وجه الأرض**» (مزمور ١٠٣:٢٩ و٣٠). المفهوم الكتابيّ للخليقة – وهي الشّيء الإيجابيّ – هو أنّها موجودة لأنّ الله يهتمّ بها باستمرار ويوجدها باستمرار. وهذا المفهوم ساطع في الإصحاح الأوّل من الكتاب المقدّس والّذي أتوقّف عنده مطوّلاً لأنّه من أسمى الإصحاحات لاهوتاً في الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد. هذا المفهوم هو أنّ النّور إلهيّ لأنّه صُنْعُ الله. والظّلمة ليست إلهيّة لأنّها ليست من صنع الله. هذا حسب النّصّ، فأنا أقرأه كما هو مكتوب، وفيه أنّ الظّلمة، والغمر ليس من صنع الله. الله لم يقل: «لتكن ظلمة» فكان ظلام. الله قال: «ليكن نور». من هنا إنّ النّور ليس طبيعيّاً، إذا أريد الصّفة أنّ الشّمس تشرق فيبزغ النّور. فالشّمس، حسب الكتاب المقدّس، خُلقت في اليوم الرّابع. وبين اليوم الأوّل – وفيه ظهر النّور – واليوم الرّابع هناك ثلاثة أيّام. ممّا يعني أنّ النّور المحكيّ عنه في بداية الإصحاح الأوّل من سفر التّكوين ليس هو نور الشّمس الّتي يسمّيها الكاتب النيّر الأكبر الّذي علّقه الله لحكم النّهار. النّور المقصود هو، بكلّ معنى الكلمة، فعل إلهيّ على أساسها تتمّ الحياة. عندنا الله، وعندنا العدم الّذي له قوّة ضدّ الله، ولا يريده أن يضبط المسكونة. ولكنّ الله، بالرّغم من هذا، يُطلع النّور، ويفصل أبداً بين النّور والظّلمة، ويعطي كلاً منهما اسمه. وتعرفون أنّ الاسم في العهد القديم يدلّ على الكيان. والكاتب، بعد أن يقول «ليكن نور، فكان نور. وفصل الله بين النّور والظّلام»، ماذا يقول؟ إنّه لا يقول: «وسمّى الله الظّلام ليلاً والنّور سمّاه نهاراً»، بل يقول: «وسمّى الله النّور نهاراً، والظّلام سمّاه ليلاً» مبتدئاً هكذا بالنّور، وجاعلاً الظّلمة على المستوى الثّاني.

النّور بالتّالي هو الشّيء الأساسيّ ليس لأنّه هكذا، أصلاً وطبيعيّاً، بل لأنّ الله جعله شيئاً أساسيّاً وأوّلاً. لذلك فالإنسان الّذي لا يستطيع أن يعيش إلاّ في النّور هو حتماً عائش بنعمة الله وإرادة الله، وليس عفويّاً أو لأنّ الأمر طبيعيٌ. لا. ليس الأمر طبيعيّاً. وهذا ما يؤكّده الكاتب بقوله: «**وقال الله ليكن جَلَدٌ في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فصنع الله الجَلَد وفصل بين المياه الّتي تحت الجَلَد والمياه الّتي فوق الجَلَد فكان كذلك. وسمّى الله الجَلَد سماءً. وكان مساءٌ وكان صباحٌ: يومٌ ثانٍ. وقال الله لتجتمع المياه الّتي تحت السّماء إلى موضع واحد وليظهر اليبس. فكان كذلك. وسمّى الله اليبس أرضاً ومجتمع المياه سمّاه بحاراً**». (تكوين ١:٦-١٠). في هذا المقطع أيضاً لا يقول لنا الكاتب إنّ الأرض شيء طبيعيّ. وهكذا مع بروز النّور والأرض يبرز ما نسمّيه في القرن العشرين بُعدا الزّمان والمكان، وهما أساسيّان للإنسان. فالإنسان زمانيّ ومكانيّ. والزّمان والمكان عنصران إيجابيّان ليس لأنّهما كذلك، طبيعيّاً وتلقائيّاً، بل لأنّ الله يجعلهما إيجابيّين. هذا هو لاهوت الكاتب. الله يفصل إذاً بين اليابسة ومجتمع المياه، ويسمّي اليابسة أرضاً، أمّا المياه فيبقى اسمها بحاراً. الاسم الأساسيّ يعطي إذاً لما هو إيجابيّ. ثمّ بعدئذ نرى، في الإصحاح ذاته، كيف يبرز النّبات على الأرض، ثمّ الحيوانات، ثمّ الإنسان.

من جهة ثانية، ولهذا السّبب الأساسيّ، نرى أنّ الدّيانات القديمة، والعهد القديم أيضاً، كانت تلصق مفهوم النّور بالله وبوجه الله: «فليضئ علينا نور وجهك». فالنّصوص كلّها تدلّنا على أنّ النّور، بمعناه الأوّل والأخير، كتابيّاً، إلهيٌ وليس طبيعيّاً أو تحصيل الحاصل. النّور هو بحدّ ذاته فعل إيجابيّ من قبل الله. وإذا نام الله أو أغمض عينه – إذا جاز التّعبير – فلا يبقى هناك نور، ولا يبقى كيان، وتسقط المسكونة كلّها.

نَعبُر بسرعة لنصل إلى العهد الجديد وفيه المفهوم نفسه

عن النّور. والحديث عن النّور في العهد الجديد نجده، بشكل لاهوتيّ مكثّف، في إنجيل يوحنّا. والسّبب هو أنّ إنجيل يوحنّا هو الوحيد، بين الأناجيل، الّذي يكلّمنا على الخلق. لذلك، فالصّلة بين إنجيل يوحنّا والإصحاح الأوّل من سفر التّكوين وثيقة. ونرى في الآيات الأولى من إنجيل يوحنّا أنّ النّور والحياة مرتبطان: «**والحياة كانت نور النّاس، والنّور في الظّلمة يضيء، والظّلمة لم تدركه**» (يوحنا ١:٤ و٥). والمعنى العميق والمفهوم من الفعل «أدرك» هو معنى «الاستيعاب والقبض على»، وهذا ما هو واضح من خلفيّة نصّ يوحنّا حيث الحديثُ عن الخلق. فالتّرجمة الصّحيحة هي أنّ الظّلمة لا تضبط النّور أو تلفّه ولا تستوعب النّور أو تقبض عليه لتقتله. وما هو واضح أيضاً من نصّ يوحنّا أنّ ثمّة عراكاً بين النّور والظّلمة. وهذه الحرب تبقى في إنجيل يوحنّا في كلامه على أبناء النّور وأبناء الظّلمة. مرّة

أخرى يتحقّق لنا، وفي العهد الجديد، خطأ المفهوم الشّائع وهو أنّ النّور طبيعيٌّ، وأنّ اللاّهوت ركب على مفهوم النّور تركيباً. النّور دائماً، وبادئ ذي بدء، تعبير لاهوتيّ، وهو في صراع دائم مع الظّلمة، فهما لا يجتمعان البتّة، فإمّا النّور وإمّا الظّلمة. فحيث النّور لا ظلمة، والعكس صحيح. لذلك لا يكون بينهما إلاّ صراع مستمرّ. ولكنّ الإنجيليّ يوحنّا يقول لنا أنّ النّور هو يسوع المسيح: «**أنا نور العالم**» (يوحنا ١٢:٨). ولهذا السّبب لم تدركه الظّلمة ولن تدركه. فيسوع المسيح ابن الله المتجسّد هو نور العالم. إنّ في إنجيل يوحنّا من أوّله إلى آخره صلة بين النّور والحياة، وتالياً ثمّة صلة، في المقابل، بين الظّلمة والموت. هنا أيضاً نرى أنّ صورة الحياة والموت هي صورة ضدّين لايجتمعان أبداً، ولا يطيق أحدهما الآخر مطلقاً. هذه حقيقة نكتشفها من إنجيل يوحنّا ومن باقي العهد الجديد. وأساس هذه الحقيقة هو موت الرّبّ يسوع وقيامته من بين الأموات. هذه الحقيقة هي أساس إيماننا وبشرانا. وهذا هو المفهوم الّذي وصل إلينا عبر تقليد الآباء، التّقليد الأرثوذكسيّ، وهو أنّ النّور هو الله، هو يسوع المسيح. النّور هو نعمة الله المعطاة لنا، ونعمة الله هي وجه الله إلينا. يجب أن تتوضّح هذه النّقطة لأنّها النّقطة المحكّ والفصل بين المفهوم الصّحيح للنّور والمفهوم الخاطئ. ففي التّقليد الكتابيّ وفي تقليد الآباء أنّ النّور ليس شيئاً طبيعيّاً بحدّ ذاته، ولكنّه دائماً وأبداً من الله، وهو حضور الله بيننا وفينا.

إنّ التقليد الآبائيّ، في كلامه على النّور، يتوضّح ويتجوهر في كلام القدّيس غريغوريوس بالاماس الّذي نعيّد له ابتداءً من هذه الأمسية. وهذا القدّيس مهمّ بالنّسبة لنا لأنّه عاش في القرن الرّابع عشر، وهو بالتّالي يلخّص تقليداً آبائيّاً مديداً جدّاً. غريغوريوس بالاماس يشدّد، كما تعرفون، على أنّ النّور الإلهيّ نور غير مخلوق، وأنّه بالتّالي ليس نوراً طبيعيّاً. هذه القضيّة الإيمانيّة اللاّهوتيّة استغرقت نصف حياته يتناقش بشأنها مع اللاّهوتيّين الآخرين. يشدّد بالاماس على أنّ النّور الإلهيّ غير طبيعيّ، بمعنى أنّه غير مخلوق، لأنّ الله يهب هذا النّور من لَدُنه. فأنت لا تستطيع أن تتصوّر هذا النّور أو تتخيّله قبل أن يوهب لك وتُعطاه. وهذا بالضّبط ما يجب استنتاجه من قراءتِنا الآية الثّالثة من الإصحاح الأوّل من سفر التّكوين: «وقال الله ليكن نور فكان نور» فأنت لا تستطيع أن تتصوّر النّور قبل حصوله. ففي الآيتين الأولى والثّانية من هذا الإصحاح نفسه لا ذكر للنّور. النّور كان لمّا قال الله: «ليكن نور». إذاً، النّور كان فقط بكلمة الله، بفم الله. ثمّ، فيما بعد، ترون أنّ الله يعمل بفمه ويده. يقول النّص «وفصل الله» بين المياه الّتي فوق الجلد والمياه الّتي تحت الجلد. إلى أن أظهر اليبس. نلاحظ من هنا أنّ النّور وحده، بين جميع ما صنعه الله وخلقه، هو حاصل بكلمة الله، إذ ليس فيه عمل يدٍ أو لمس أبداً. وهذه نقطة أساسيّة جدّاً. فالتّقليد الأرثوذكسيّ، خلافاً للتّقليد الكاثوليكيّ – البروتستنتيّ، يشدّد على أنّ النّعمة غير مخلوقة وأنّها ليست خارج الله بل هي وجه الله في خروجه نحو الإنسان. الله هو النّعمة، هو الموهبة. ونستطيع إبراز هذه العقيدة في العهد الجديد. ففي الأناجيل الإزائيّة (متّى، مرقس، لوقا) نرى ذكراً للصّالحات (عند متّى) الّتي هي الرّوح القدس (عند مرقس). والمقصود بالصّالحات مواهب الله. وفي رسائل بولس كثير من النّصوص الّتي تؤكّد هذه النّقطة، ولا يتّسع المجال الآن لتفنيدها. وهذه النّصوص، إذا قرأناها بدقّة، ترينا أنّ الموهبة، أي النّعمة، ملصقة بشخص الرّوح القدس، وهو الإله. ولهذا السّبب نقرأ في كتاب «أعمال الرّسل» أنّ النّور، منذ البدء، ملأ الكنيسة بحضوره. ويعبّر عن هذا النّور بمواهب مختلفة. فمن المهمّ أن نعي، إذاً، لماذا يُشدّد اللاّهوت الأرثوذكسيّ على أنّ النّور أيضاً إلهيٌّ أصلاً وجوهراً.

ما معنى هذا الكلام كلّه بالنّسبة لنا؟ إنّ معناه لَمُهمّ جدّاً. ألا

وهو أنّ الكتاب المقدّس والتّقليد الأرثوذكسيّ يمنعان مُطلقاً التّخيّل والتّصور والإحساسات في القضايا اللاّهوتيّة. فهناك دائماً مقياس على أساس خبرة أنت اختبرتها وكانت، في الحقيقة، ما يسمّيه الكتاب المقدّس «ظهوراً إلهيّاً» و «إعلاناً إلهيّاً» لك، وليس انعكاساً منك على اللّه، أو تخيّلاً من عندك وتهيُّؤاً أنّك رأيت اللّه. واللاّهوت الأرثوذكسيّ، بهذا المعنى، مزعج لأنّه يقتضي تمييزاً دقيقاً بين أن يكون هذا «الإعلان الإلهيّ» لك هو في الحقيقة حركة من اللّه إليك أو هو مجرّد تخيّل من تخيّلاتك. ونحن نعرف من الكتاب المقدّس ومن تقليد الكنيسة أن اللّه يعتلن نوراً. ولكنّ الإنسان، في المقابل، يمكنه أن يتصوّر النّور أو أيّ شيء آخر. الفرق، لاهوتيّاً، هو أنّ النّور، بتصوّرنا نحن إيّاه، هو شيء مخلوق، طبيعيّ، من عمل الدّماغ، وإن اعتبرناه عطيّة إلهيّة. ولكنّ النّور الإلهيّ الّذي يقول لنا الآباء إنّهم اختبروه ويختبرونه، هو نور يعطى عطيّة، يعطيه اللّه من لدنه، ولا نتخيّله تخيّلاً. وأنت تختبر هذا النّور، وبصعوبة تستطيع أن تتكلّم عليه. وفي التّقليد الأرثوذكسيّ أنّ مَن ذاقوا خبرة النّور الإلهيّ لايحبّون أن يتكلّموا عليها كثيراً. لا بل أنّ التّقليد الرّهبانيّ يوصي بعدم الكلام على هذه الخبرة، فهذه الخبرة إعلان خاصّ لك. أنت تعبّر عنه في حياتك اليوميّة ولا تتكلّم عليه، لأنّ اللّه لا يمكن الكلام عليه ولا يستوعبه الكلام. الخبرة الإلهيّة لايعبّر عنها إذاً بكلام بشريّ، بمعنى أنّ الكلام لا يستطيع أن يستوعب حقيقة هذه الخبرة، ولكنّ الإنسان يُرمى في عيش هذه الخبرة وهذه البشارة في حياته اليوميّة. والعهد الجديد يعلّمنا أنّ الأمور هكذا كانت بادئ ذي بدء. تذكرون أنّني قلت، منذ قليل، إنّ لاهوت النّور بمعناه الأخير نستنتجه من خبرة موت الرّبّ يسوع وقيامته. ثمّ إنّ نصوص العهد الجديد كلّها الّتي فيها كلام على ظهور الرّبّ يسوع المسيح وإعلانه، هذه النّصوص كلّها وبدون استثناء هي ظهورات الرّبّ يسوع للرّسل، وكلّ منها ظهور حيّ يقول خلاله الرّبّ القائم من بين الأموات والظّاهر للرّسل أن خذوا البشارة وبشّروا. وبالتّالي، فإنّ الّذين يقرأون نصوص القيامة ويصوّرون أنّ قيامة المسيح هي حدث للتّفرّج عليه، هؤلاء لايقرأون في الحقيقة ولكنّهم يتخيّلون. النّصّ الكتابيّ، بحتميّته وبدون استثناء، في الأربعة أناجيل وفي ظهور الرّبّ يسوع لبولس الرّسول، في «أعمال الرّسل»، واضح جدّاً في مرماه وهو أنّ الرّبّ يسوع في كلّ مرّة يظهر فيها، لايظهر ليبهر النّاس ويقول «شوفوني يا شباب»، إنّه يظهر ليقول دائماً للرّسل، لكلّ رسول، احمل أنت البشارة لتوصلها إلى النّاس. وبالتّالي، في الظهور الإلهيّ الحقيقي دعوة حتى تخرج أنت من إحساساتك وتصوّراتك الشّخصيّة وحماسك لتذهب وتكلّم النّاس على اللّه وليس على خبرتك مع ظهور اللّه لك. هذه الخبرة لا يتكلّم عليها. الرّسول بولس، عندما يُحرج فقط، يتكلّم على هذه الخبرة ليقول للنّاس إنّه هو أيضاً رسول. فالظّهور الحقيقيّ، والنّور الإلهيّ، هو اللّه نفسه يظهر لنا ويتحدّانا في كياننا. إنّه يعطينا حياة ليست لنا ولكن للآخرين هذا ما فهمه جيّداً بولس الرّسول عندما ذكر في رسالته الثّانية إلى أهل كورنثوس: «**فما زلنا نُسلّم إلى الموت في سبيل يسوع لتظهر في أجسادنا الفانية حياة يسوع أيضاً**» ويتمّم كلماته هذه توّاً بآية تعقبها: «**فالموت يعمل فينا والحياة تعمل فيكم**». (٢كورنثوس ٤: ١١و١٢). لقد فهم بولس الرّسول أنّ البرهان الأخير على أنّ ما ظهر له حقيقة إنّما هو في أنّ كنيسة أُسّست من العدم، على كلمته في كورنثوس. أن يكون اللّه ظهر بنوره لبولس، حقيقة، برهانه كنيسة تسالونيكي، وبرهانه كنيسة كورنثوس، وبرهانه أيضاً كنيسة أفسس... إلخ.

من هنا، ياإخوة، إنّ موضوع النّور، في آخر المطاف، هو موضوع شهادة. والشّهادة سنحاسب عليها في اليوم الأخير. اللّه لن يحاسبني على كم هو عدد المرّات الّتي ظهر فيها لي. فلماذا يحاسبني على هذا؟ إنّه إذا ظهر لي فلأنّه هو قرّر أن يظهر

لي. وظهوره هذا موهبة لي من عنده. ولكنّ محاسبة الله إيّاي هي على استعمالي اعتلانه هذا لي. نستنتج من هذا الكلام أنّ اللاّهوت الدّقيق -وعدم فهمه مذهل، مع الأسف -اللاّهوت الحقيقيّ يرمي المؤمن في معمعة الحياة اليوميّة واللاّهوت الحقيقيّ أيضاً، أي النّور الإلهيّ الحقيقيّ، يمنعك تلقائيّاً، إذا فهمت أنت هذه الخبرة على حقيقتها، وإذا وهبك الله إيّاها، من أن تتكلّم عليها، فندرك أنّ المطلوب ليس الكلام على مثل هذه الخبرة بل أن تشهد لها بقدر ما تعيش أنت حسبما يوافق النّور ويوافق هذه الخبرة. كيف السّبيل إلى ذلك؟! السّبيل إلى ذلك هو بأن تعيش مع من حولك، والّذين هم في الظّلمة والموت، بالمعنى الكتابيّ، وكأنّك تعيش في النّور والحياة، بالرّغم من كونك معهم في دنيا الظّلمة والموت ذاتها، وكأنّك تعيش في النّور لأنّك لاتخاف الظّلمة، وكأنّك تعيش من حياة لأنّك لا تخاف الموت. هذا ما يستتبع كون موضوع موت الرّبّ يسوع من أصعب المواضيع الّتي واجهها الآباء. هل مات يسوع أم لم يمت؟ هذا هو السّؤال الّذي واجهوه. فالمشكلة، من خلال السّؤال، هي في كيف يمكن أن يموت الله؟ جواب الآباء الوحيد هو: نعم، لقد مات المسيح. فلو لم يمت لما دحض الموت وأماته. وإذا كان الموت ظلمة ويسوع نوراً فكيف يدحض النّور الظّلمة ما لم يدخل فيها؟ يسوع المسيح دحض الظّلمة والموت لأنّه دخل فيهما كَنور إلهيّ. فلم يعد ثمّة فرق، كما يقول بولس الرّسول، بين أن تموت أو أن تبقى على أرض الحياة. فمن هذه الجهة نور من تلك نور أيضاً، وليس من ظلمة البتّة. ولكنّك إذا كنت لا تزال تحسّ أنّ ثمّة فرقاً، فمعنى ذلك أنّك لست في النّور بل في الظّلمة، حتّى قبل الموت. لذلك فعند الموت لن يتغيّر شيء وستبقى في الظّلمة كما كنت. إذاً أنت تعيش، حقيقة، في هذا النّور اليوم فأنت تعيش فيه بعد الموت أيضاً. وفي هذا كلّه أعود لأقول إن منطلقنا الوحيد هو موت يسوع وقيامته، إذ ليس لنا منطلق آخر. ونحن اليوم نعيش، هنا، بين إخوة لنا وأخوات، في الظّلمة وظلال الموت، ولكنّنا نتنفّس من النّور. وبحسب هذا المفهوم فإنّ على حياتنا أن تكون شهادة للآخرين في سعينا اليوميّ، في أعمالنا وأتعابنا وعرقنا. علينا أن نعرّف النّاس على الله ونوصل إليهم اللّقمة باسم الله، ونعزّيهم باسم الله. هذا يعني، يا إخوة، أنّ علينا، وبشكل خاص في حركة الشّبيبة الأرثوذكسيّة الّتي نحن أعضاء فيها، أن نفهم أنّ الشّهادة ليسوع المسيح هي الأساس. هذا ما أتمنّاه عليكم أكثر من أيّ شيء سواه. فالأجيال الصّاعدة لن تعرف يسوع المسيح إلاّ من خلال الشّهادة له. ولكنّ هذه الشّهادة لاتتمّ في حقيقتها إلاّ إذا كانت مشبعة باللاّهوت. فالمسألة هي في أن تعرف كيف تشهد، فتشهد بعقلك وليس فقط بإحساساتك. لذا فالمطلوب منّا هو الدّرس والتّعلّم، ليس ابتغاء للمعرفة بحدّ ذاتها، ولكن ابتغاء للشّهادة لله من وراء المعرفة. وإذا كان هذا الكلام صحيحاً فمعناه أيضاً أن نتجاسر باسم المسيح على أن نحاسب بعضنا بعضاً على تكاسل في الدّرس وتهاون في معرفة إيماننا. هذه المحاسبة لا نستأذن أحداً لأجلها. هي مفروضة علينا، وفقدانها -إذا فُقدت- يعني أنّ اجتماعاتنا كلّها ونشاطاتنا هي فقط لتغذية الحماس وللحكي والتّسلية. لذلك فإنّ مسؤوليّة المعرفة تقع على كلّ واحد منّا، كبيراً كان

أم صغيراً. ففي الكنيسة لافرق بين كبير وصغير. فإنّ «العهد

الجديد»، كما يقول النّبيّ إرميا، قد طُبع على قلوبٍ من لحم وليس على صخر، «وعندئذ يقول الرّبّ، سوف لن يُعلّم الواحد الآخر، ولكنّهم من أكبرهم إلى أصغرهم سيعرفون تلقائيّاً إرادة اللّه». فاللّه يعلّمهم، كما يقول بولس الرّسول في إحدى رسائله. إنّ هذه المعرفة الّتي على كلّ منّا حيازتها، هي الّتي تحدّد لك، في آخر المطاف، ما إذا كانت خبرتك صحيحة أم تصوّريّة. وهذا يعني أيضاً أن تقيس خبرتك بخبرة يسوع المسيح وخبرة رسله الّذين عاشوا النّور وهم في الظّلمة اليوميّة، وعاشوا الحياة وهم في الموت اليوميّ، في عراكهم ضدّ الظّلمة وضدّ الموت. فأنت، كلّما اقتربت من نور اللّه، يجعلك اللّه تعيش في الظّلمة أكثر حتّى يبرهن للنّاس أنّ نوره يدخل الظّلمة ويجعلها نوراً. وهذا ما يفسّر لنا كيف أنّ الرّسول بولس، في رسالته الثّانية إلى أهل كورنثوس، يعدّد أتعابه الّتي أثمرت تأسيس كنائس وحمل بشارة، وهذا في معرض دفاعه عن رسوليّته الّتي كان متّهماً فيها. وفي هذا أيضاً يؤكّد بولس ما قاله في الإصحاح الرّابع، في أوائل رسالته هذه الثّانية إلى كورنثوس في أنّ الموت يعمل فينا. لذلك ينتهي بولس في الإصحاح الثّاني عشر في الرّسالة نفسها بأن يطلب إلى اللّه، ثلاث مرات فقط، أن يقتلع منه الشّوكة، أي الضّعف. وفي كلّ مرّة كان جواب اللّه له أنّ «قوّتي في الضّعف تكمل». أي أن اللّه أفهم بولس ما معناه أنك إن لم تكن كذلك فأنت لا تقدر أن تحمل البشارة، لإنّك تكون إذ ذاك حاملاً نفسك ولست حاملاً إيّاي. وما عليّ أنا أن أفهمه هو هذا، أنّه عندما يراني الآخر في ظلمة أكثف من الظّلمة الّتي هو فيها، ولكنّني أشعّ من ظلمتي نوراً ينير في ظلمته هو، عندئذ فقط يفهم أنّ النّور ليس منّي، فلا بدّ من أن يكون من مصدر آخر. وعندما أعيش في الضّيق والموت اللّذين يعيشهما الآخر، ولكنّني أغدق عليه من ضيقي وموتي حياة ونفساً جديدين، عندئذ فقد لن يستطيع ذاك الآخر إلاّ أن يقول إنّ حياتي هذه من مصدر آخر. عندئذ فقط يسطع اللّه بوجهه من خلال كلّ رسول. تلاحظون ياإخوة، إذاً، وكما ابتدأنا في سفر التّكوين، أنّ قضيّة التماسي النّور وأنا في الظّلمة، والتماسي القيامة والحياة فيما أنا في الموت، ليست قضيّة قد تكون أو لا تكون، ولكنّها جزء لا يتجزّأ من الكلام على النّور. فإذا أنا تكلّمت على النّور من النّور، وعلى الحياة، فالّذي يسمعني يستنتج أنّ هذه خبرتي حقّاً وأنّني أعرف وأعي ماأقول. وعندئذ لابدّ لهذا الشّخص من أن يتساءل: «من أين الحياة لهذا الشّخص المائت؟ من أين النّور لهذا الشّخص الّذي تكتنفه ظلمة أكثف من ظلمتي؟». وبهذا المعنى فإنّ نور اللّه لا يجتذبني إليه بل يبعدني عنه يجذبني إلى الآخرين حتّى يتجلّى اللّه فيهم. قيامة الرّبّ لا تجتذبك إليها بل إلى الآخرين لتعلنها لهم.

في آخر المطاف، وحتّى أُنهي، أقول إنّ معرفتنا لمّا تقدّم هي من يسوع المسيح الّذي عاش هو نفسه هذه الخبرة وإنّ بداية كلّ شيء كانت عندما طلب اللّه الآب من ابنه الوحيد الجالس في حضنه، أن يخرج من حضنه ويذهب إلى النّاس الّذين يقول لنا عنهم بولس في رسالته إلى أهل رومية إنّهم ما كانوا يستحقّون خلاص اللّه لأنّهم كانوا حقيرين. واللّه الآب طلب من ابنه الوحيد ليس فقط أن يذهب ويعيش مع النّاس وبينهم كشخص عاديّ ولكن كإنسان بصورة عبد، على حسب ما نقرأ في الرّسالة إلى أهل فيليبّي: «**وصار إنساناً بصورة عبد وأطاع حتّى الموت موت الصّليب**» (فيليبّي ٢:٧ و٨). فالنّاس لم يعرفوا اللّه إلاّ عندما أنزل ابنه إلى أسفل دركات الإنسانيّة. والمسيح، من هذا الأسفل، فجّر كلّ شيء فعرفه النّاس إلهاً. فالمحبّة الإلهيّة لها وجه لم يخطر ببال إنسان ولم تسمع به أذن ولم تره عين. والمسيح ظهرت بنوّته للآب بحيث أنّ أحداً لايشارك المسيح هذه البنوّة. هذه الخبرة اللاّمعقولة بشريّاً صارت معقولة في الكتاب المقدّس. لذلك، فإنّ مطلبي، ياإخوة، أن نجتهد في أن لا نفهم النّور وخبرة النّور إلاّ من خلال خبرة يسوع المسيح.

الأخبار

أقامت لجنة سيدات البشارة في دولة الكويت يوم الجمعة ١٢ آذار ٢٠١٠ غداءها الصيامي الخيري، تخلله سحب على جوائز قيمة، وقد شارك عدد كبير من أبناء الرعية.

أقامت مدارس الأحد في دولة الكويت حفلاً بمناسبة عيد الأم، وتخلل الحفل فقرات قدمها أبناء مدارس الأحد، وحضر الحفل أهالي أبناء مدارس الأحد، وفي نهاية الحفل قدّم كل ابن من الأبناء وردة لأمّه.

ضمن جولته الرعائية في الكويت، زار صاحب السيادة المطران يوسف مسعود مسعود، مطران اللاذقية وطرطوس وتوبعهما للموارنة صاحب السيادة المطران قسطنطين راعي الأبرشية، حيث تبادلا الحديث الأخوي والاطمئنان واحِدهما عن الآخر، وفي نهاية اللقاء رتّل المطران يوسف ترتيلة «بواجب الاستئهال» باللحن البيزنطي، فأتت جميلة، ومعبّرة.

باقتراب عيد الفصح المجيد، أقامت مدارس الأحد معرضها الفصحي السنوي، الذي عُرض فيه ما قام به أبناء مدارس الأحد من أعمال يدوية على مدار العام.

ببركة صاحب السيادة المطران قسطنطين الجزيل الاحترام، وبحضور رئيس المركز والأعضاء، أحتفل مركز بغداد والكويت وسائر الخلج العربي في الكويت بعيد حركة الشبيبة الأرثوذكسية الثامن والستون، حيث ابتدأ الاحتفال بصلاة الغروب وكسر الخبزات الخمس، تلاها جلسة مع صاحب السيادة في صالون الكنيسة، الذي كان له كلمة أكّد فيها على هوية الحركة الأرثوذكسية ودورها الفعّال في الكنيسة وخاصة في التعليم وخدمة الكلمة، وتمّ قراءة كلمة الأمانة العامة للحركة من قِبل الشماس يوسف عرب، مسؤول المركز، وتبادل الأخوة الأعضاء الاقتراحات المستقبلية، وانتهى اللقاء بمائدة محبة.

بمناسبة عيد بشارة والدة الإله «عيد رعية دولة الكويت»، أقيم مساء الأربعاء ٢٤ آذار قداساً إلهيّاً احتفالياً ترأسه قدس الأرشمندريت أفرام الطعمي، وكان في مقدمة المحتفلين لجنة سيدات البشارة، التي تحمل اسم هذا العيد وتستشفع بوالدة الإله.

بمناسبة عيد استقلال اليونان، والمتوافق مع عيد بشارة والدة الإله، احتفلت الجالية اليونانية في دولة الكويت، وعلى رأسهم سعادة سفير اليونان في دولة الكويت السيد قسطنطين دراكاكيس، حيث ترأّس الخدمة صاحب السيادة المتروبوليت قسطنطين الجزيل الاحترام، وعاونه قدس الأرشمندريت أفرام الطعمي، وتلا الصلاة مائدة محبة، وتمّ تقطيع كعكة العيد من قِبل صاحب السيادة والسفير اليوناني.

بمناسبة عيد الشعانين، أقيمت في كنيسة سيدة البشارة في الكويت خدمة العيد، ترأس الخدمة قدس الأرشمندريت أفرام الطعمي، وشاركه قدس الأرشمندريت أرساني، كاهن ضيف من روسيا.

هاتف: ٢٥٦١٧٣٦٧ ٩٦٥+ ـ فاكس: ٢٥٦٣١٥٣٨ ٩٦٥+
صندوق البريد: ص.ب٨١٧٣ السالمية ٢٢٠٥٢ الكويت
الموقع الإلكتروني: www.gulforthodoxchurch.org